الفهـــرس

عبد الكبير الخطيبى

المغرب كقضية فلسفية

أيها السادة والسيــدات (*)

يسعدنى أن أوجه تشكراتى الحارة الى مكتب اتحاد كتاب المغرب لهذا اللقاء ولهذه الدعوة الكريمة .

وهذا اللقاء هو عبارة عن لقاء آخر ، لقاء أكثر أهمية ، لقاء حول مسالة المغرب كمسألة نظرية جذرية .

فالمغرب ليس فقط تلك الارض التى نمشى فوقها ، وذلك الاسم الذى يشير الى جنسيتنا ، فهو أكثر من ذلك ، فهو ككل بلد وككل قطر يكون بحثا جذريا عن الوجود كوجود عن معنى الوجود كتساؤل لا نهائى . .

وهذا التساؤل اللانهائى يسيل فى جسمنا وعقلنا بعنف ، لان التاريخ ، لان تاريخ الانسان فى هذا الارض عنف عنيف ، يقلقنا ويمزقنا بين الحياة والموت ، بين الجمود والابداع ، بين التراث والمعاصرة .

---

* نص المحاضرة التى ألقيت بكلية الآداب بالرباط (78.3.15) فى نطاق نشاط اتحاد كتاب المغرب .

فما هو اذا ذلك المغرب الذى نشير اليه بحماس ؟ وما نحن كمغاربة ضمن مسألة المغرب ؟

* * * *

كل سؤال يكون بحث يحاول ان ياخذ من الموضوع المبحوث عنه توجيها ومقياسا للكشف عن ماهية الموضوع وماهية التساؤل فى آن واحد . احسن سبيل للكشف عن الجواب . ومن جهة اخرى يكون الجواب فى الاخير سؤالا ضمن سؤال : وهذا ما اشرنا اليه بعبارة ((التساؤل اللانهائى))

واحتراما لهذا المبدأ المنطقى ستكون هذه المحاضرة فى سلسلة من الاسئلة قد تتجلى فى كيان المغرب كمغرب .

وهذا التناول التسلسلى يثير السؤال الثانى والنقطة الثانية : ما هو المغرب كتراث وكتقليد ؟

1 ـ التقليد والتراث

طبعا هناك آراء كثيرة ومتنوعة ومتناقضة تماما عن مسألة التقليد والتراث ، فمنهم من يغالى فى مدحه وفى تقديسه وجعله منبعا وأساسا لكل شىء ، ومنهم من يفرط فى الهجوم عليه ، مدعيا أن التقليد هو سبب الانحطاط والتاخر ، ومنهم من يحاول التوفيق بين التقليد والاجتهاد بين الحاضر والماضى ، ولكن ما هو التقليد والتراث فى رأينا ؟ التقليد فى رأينا هو الرجوع الى ما نسيناه وهذا الرجوع هو تحرك الجسم وتحرك العقل أى الجذور الطبيعية والتاريخية التى تحدد كيان الانسان .

ويجب الانتباه هنا الى المعنى الحرفى لكلمة تراث ، كلمة التراث تعنى حرفيا ما يخلفه الميت لورثته ، والمغرب كوراثة وجودية يدفعنا الى التامل فى الجذور الطبيعية والتاريخية التى تحدد الانسان المغربى ومسالة التقليد والتراث . والاصالة لا تنحصر فى حدود ايديولوجية معينة ، وانما هى مسألة فلسفية اولية تريد الرجوع الى ما نسيناه من تلك الجــذور الطبيعية والتاريخية .

فالاصل — اصل امة ، اصل شعب — يكون اصلا مقنعا ، متجاوزا تماما المميزات السلالية والعرقية ..

والرجوع الى ما نسيناه ، نسينا ان الاموات ما زالت تنادينا منذ زمن طويل ، نسينا ان كل امة تتكون من وحدة الاموات والاحياء ، ولكن اى اموات واى احياء لا كل حى يعيش مع امواته الخاصه التى تضمه اليها بحنان او غير حنان ، ونحن ابناء هذا العصر نريد التامل فى مساله جميع الاموات التى تكون هذه الارض . تركت الاموات اثارا متعدده فوق الارض المغربيه، وذلك فى جميع المستويات ، تركت آثارا فى الجسم وفى العقل المغربى ، وهذه الاثار المتنوعة ، منها ما ينتمى الى عصــور ما قبل التاريخ ، منها ما ينتمى الى التاريخ البربرى والرومانى والفينيقى ، ومنها ما ينتمى الى تسليم المغرب الى الاســلام وتعريب المغرب بسلام او غير سلام . ثم هناك ما ينتمى الى الاستعمار الفرنسى والاسبانى خاصة ، والى الحضارة الاروبية عــامــة .

هذه الاثار القديمة او الحديثة ، التاريخية او قبل التاريخ هذه الاثار تنادينا للحوار معها ، فاننا لا نستحق صفة مغربى الا اذا انطلقنا بدون آراء مسبقة الى مسالة المغرب فى جذوره الطبيعية والتاريخية التى تكون الانسان المغربى .

وهذه الانسان المغربى لا نراه فى نطاق ضيق يجعل من كيانه ميدانا للنزعة المتعصبة والمتطرفة ، ويجعل من المغرب نفسه كلاما فارغا والا مسؤول .

ويجب الانتباه هنا الى عبارة ((الانسان المغربى)) ما هو هذا الانسان ؟ ما هى ماهيته ؟ فمعروف أن مفهوم الانسان قد تغير تغيرا ملموسا فى القرون الاخيرة ، وذلك مع تطور الحضارة الصناعية وتنمية العلوم الحديثة أن الفيلسوف M. Foucault (فوكو) قال بان الانسان كمفهوم قد انتهى دوره ، لانه أصبح موضوعا بلا مركز موحد بلا ماهية موحدة كما كان الانسان سابقا فى ميدان اللاهوتية .

وربما سيدهشكم هذا الحديث عن التقليد ولكن التساؤل اللانهائى يبدأ بالدهشة والاستغراب .

نعم ، أستغرب المحاضر ، أستغرب ذلك المحاضر من مسالة المغرب منذ شروق الشمس الى غروبها ، ثم تساءل : هل انا مغربى ؟ وكيف انا مغربى ؟ ثم شرع بالقاء المحاضرة ، وهو يريد تفكيك الآراء الشائعة عن مسألة المغرب ، عن هذا البلد التى تسيل فى جسمه وعقله .

وربما كان البعض يسير معه فى نفس الطريق بوعى أو غير وعى ، ربما كان البعض الاخر يستغرب من هذا المنهج ومن هذا التساؤل اللانهائى .

حقا ، يكون هذا المحاضر غربيا وشرقيا فى مسالة المغرب. لماذا ؟ لان وجود المغرب يكون بين الغرب والشرق ، بين المغرب المشرق ، بين التاريخ وما قبل التاريخ ، بين الميتافيزيقا ومـا يناقضها ، بين العرب والبربر ، بين الدين والسحر، بين القبيلة

والاقطاعية من جهة ورأسمالية من جهة أخرى ، بين ، بين .. الى آخـــره .

خلاصة النقطة الاولى : التقاليد اذا رجوع الى ما نسيناه ، وهذا الرجوع يكون مزدوجا باستمرار . وهذا دافعنا فى أبحاثنا السابقة عن فكرة النقد المزدوج .

2 ـ مسألة الفرق والاختلاف

نادانا (فانون F. Fanon) قبل وفاته ، وكان هذا النداء صيحة قد خلفت فى قلوبنا صدى كبيراً ، قال : ((هلموا أيها الاخوة ! فان لعبة الغرب قد انتهت تماما ، فعلينا أن نبتكر أشياء جديدة ، وأن نعبر سبلا جديدة)) .

نعم ، أن نبتكر أشياء جديدة ، ولكن كيف ؟ كيف نستطيع الابتعاد عن الغرب وهو يعيش الآن ضمن كياننا الذاتى ؟ كيف نتمكن من التغلب على هذه الحضارة الصناعية الجبارة ، وهى تسير فى طريق السيطرة المطلقة على العالم ؟

وهنا يجب تطبيق التحليل النقدى للآراء الشائعة فى ميداننا الثقافى عن مسالة الفرق والاختلاف . ينحصر غالبا هذا الكلام الشائع فى آراء مسبقة وساذجة وبسيطة وتحكمية فى نفس الوقت ولابد أن نتخلص منها اذا اردنا أن يكون هذا النقاش ايجابيا . وقد اشرنا اليه غير ما مرة فيما قدمناه من الدراسات .

ليست هوية الانسان وحدة ، وحدة مغلقة ، تكون مضادة تماما للآخر ، ولكن هناك انعكاس مشترك ، وعلاقة جدلية بين الهوية والآخر ، بين الهوية ومسألة الفرق . فالهوية تتكون من قوى مختلفة ، تنطبق من الجذور الطبيعية والتاريخية التى تشكل الوجود الانسانى .

فالهوية ليست فى رأينا ذلك الرجوع الاعمى الى أراء مسبقة عن مسالة الأنا واللاأنا ، عن الهوية والفرق ، ليست هذه الهوية الرجوع الى اصالة عمياء ، تمشى فى ظلام الفكر . الاصالة فى رأينا وفى النقد المزدوج نتساءل عن ماهية الوجود الطبيعية والتاريخية ، وعن والعلاقة الجدلية بين الانا والآخر والرجوع الى ما نسيناه من هذه الجذور الطبيعية والتاريخية .

ما زال الكثير منا يعيش فى ميدان ما أسميه « التباين الساذج »، التباين الساذج انفصام وهمى بين الانا والاخر : يتوهم الكثير منا أن الاخر يكون خارج ذاتيتنا تماما وان «الأنا» وحدة موحدة تخضع أساسا لمقياس الحرية الفردية ، كلام فارغ ومضحك ، ان مسالة الوجود أوسع وأعمق من ذلك الآراء الشائعة .

يجول بنا الكون فى رباعية الوجود ، بين الآلهة والانسان، بين الانسان والاشياء بين الانسان والانسان ، بين الحياة والموت رباعية الوجود مسالة مطروحة للجميع اعربا أم لا .

نعم ، نادانا (فانون) بقوة وبعنف ، نادانا قبل وفاته وهو يعنى مرضا مميتا ، أراد (فانون) الابتعاد عن الغرب المتعمر ، عن الغرب الامبريالى والراسمالى ، أراد الابتعاد عن عن هذه السيطرة وهذا الاستغلال ، وذلك لتشق شعوبنا المستقلة سبلا جديدة فى ميادين العمل والفكر .

وهذا النداء كان انعكاسا الفترة الاستعمارية وما زال فى حد ذاته منطويا فى ايديولوجية قومية ساذجة . لماذا ساذجة ؟ لان (فانون) يرى ان الصراع بين الشعوب يخضع فى آخر الامر لمقياس مانى ، صراع بين الخير والشر ، باتعلم أن الاخر هو منبع الشر وهذا الموقف غير صحيح .

ونحن نتساءل : ما هو الغرب ؟ ما هو الغرب كغرب ؟ هذا الغرب الذى زعزع كياننا حتى أنه وصل الى خذور وجودنا ؟ ما هو هذا الغرب الذى نحبه ونكرهه فى آن واحد ، هذا الغرب الذى نريد مجابهته فى جميع الميادين ؟

كان الغرب فى طريق السيطرة على العالم منذ قرون وقبل ان تنهار الحضارة العربية فى أواخر القرون الوسطى ، وهذه السيطرة الغربية على العالم تعبر عن قوة جبارة ومجهولة حتى عصرنا هذا ، عن ارادة قوة اندفعت الى الامام بوسائل التقنية والصناعة وتحت رعاية المعرفة المطلقة الهيجلية و (هيجل) هو الفيلسوف الذى رفع الحضار الغربية الى مستوى معرفـــة مطلقـــة .

الى أن أين تسير تلك الارادة الجبارة ؟ لاندرى وربما وصل الانسان متأخرا فى هذه الارض فاصبح عبدا لسيطرة بلا مسيطر وربما اصبح الانسان تائها فى هذه العالم منفيا فيه وخاضعا تماما لقوة جبارة ، مستحيل التغلب عليها ، ونحن العرب ربما جئنا متأخرين الى عالم التقنية ، نريد أن نحرر بلـــداننـــا من الاستغلال الاجنبى ، ولكن بأى وسائل ؟ ونحن المغاربة مازلنا نتخبط فى التخلف الصناعى . فكيف التخلص اذن مـــن هـــذا التخلف بغير نقاش مجد ورصين مع الغرب ؟ نحن المغاربة ؟ ولكن ما نحن المغاربة ؟ من نحن ؟ لكل تيـــار مغربى مغربه الخاص ، كتقليد وكمشروع تاريخى ، أما الباحث فهو يحـــاول الانتقال من هذا الميدان الضيق الى مغرب جذرى ومطـــق ، مغرب جميع المغاربة ، أمواتا وأحياءا ، مغرب كمسألة ضمن رباعية الوجود .

تلك الآراء الضيقة نراها شائعة فى جميع الميادين ، وهى تتجسم فى ثلاث تيارات اساسية : التقليد — والسلفية — والعقلانية .

3 — المغرب كأفق للفكر

لقد كان التمييز بين التيارات الثلاثية هو معيار منهجى فحسب يسبق منطقيا الرجوع الى الواقع ، الرجوع الى الاشياء ذاتها ، اكان هذا الشىء انسانا او حيوانا او جامدا ، واسمحوا لى اذ كررت القول فى هذه النقطة ، قلت ان هذا التمييز بين التيارات الثلاثة هو معيار منهجى فحسب ، يسبق منطقيا الرجوع الى الواقع .

ثلاثة تيارات : بلا شك سيتساءل كل واحد منكم وكل وحد منا الى اى تيار ينتمى ، ولذا الح على الجانب المنهجى لهذا التمييز : هو تمييز منهجى قبل كل شىء . اضيفوا الى ذلك أن هذه التيارات ليست متناقضة ، مطلقا ، بينها ترابط منبثق من أرضية ميتافيزيقية مشتركة .

الميتافيزيقيا ، ماهى الميتافيزيقيا ؟ نستعمل هذا المصطلح فى معناه الاغريقى الاصلى ، وهو علم وجود الموجودات ومعنى هذا الوجود . وقد جدد هذا المعنى الفيلسوف الالمانى (مارتن هيدجر) وهو كما تعلمون أكبر واهم فيلسوف فى هذا العصر ، مشروعه الفلسفى تجاوز الميتافيزيقا اكانت اغريقية ام لا .

نعم ، الميتافيزيقا هى مسالة وجود الموجودات كوجود كيفما كانت : طبيعة ، انسان ، حيوان ، ارض ، سماء ، زمان ، مكان ... الخ .

ـــ والآن : ما هى التقليدية ؟ هى تغيير مسالة الوجود الى مسالة روحية اولا وقبل كل شىء .

ـــ ما هى السلفية ؟ هى تغيير مشكلة الوجود الى مذهب اجتماعى وسياسى .

ـــ ما هى العقلانية ؟ هى تغيير مسالة الوجود الى مسالة الى مسالة علمية وتقنية .

التقليدية: تحديد التقليدية هو عادة اتباع التقاليد والمحافظة على الاوضاع المالية والعقلية باعتبار أنها التعبير الشرعى عن الحاجيات الحقيقية لمجتمع ما . هذا التحديد لتقليد والتقليديه حسب الآراء الشائعة هو بنفسه تحديد تقليدى . وهنا يظهر بضوح الفرق بين الراى التقليدى والراى التابع لنقد مزدوج . لماذا ؟ نسيت التقليدية بأن مسالة التقليد مطروحة للنقاش والتجربة ، فاصبحت تنحصر فى عقيدة منغلقة وفى مبادىء فارغة لا تستطيع التغيير مع تغيير الاحوال التاريخية والطبيعية ، لا تستطيع الرجوع الى حرية الانسان أمام مسالة الوجود والموجودات ، نسيت كل ذلك ونسيت أنها تعيش الآن فى ظلام الفكر لا سبيل فيه . تؤدى التقليدية الى التراثية ، يعنى الرجوع الى صورة جامدة للماضى ، ولكن الماضى يتغير مع الحاضر والمستقبل ، اقول : تؤدى التقليدية الى الاصالة العمياء ، والاصالة العمياء تؤدى الى نكوص فى العقل والجسم ، فى الفرد والمجتمع ، ونحن نريد تجاوز هذا النكوص وذلك لتجديد الماضى والحاضر ، فى سبيل مستقبل يخضع لقانون الوجود التاريخى الجذرى ، نريد تحرر الفكر وتحرر الجسم من النكوص النفسى ، نريد تحرر الطبقات الفقيرة ، وتحرر المراة من العبودية ، وتحرر المجتمع المغربى من هياكله العتيقة .

قلنا بان السلفية هى تغيير مسالة الوجود الى مذهب اجتماعى وسياسى ، وقد حاولت كمذهب التوفيق بين الروحانيات ومسألة التقنية ، وقد نظرت بكل سذاجة ان هذا التوفيق واقعى وممكن تطبيقه فى جميع المستويات .

وننبه هؤلاء السلفيين بأنهم يتجاهلون أن تطبيق الصناعة على المجتمع المغربى والمجتمعات العربية هو فى الحقيقة انتشار قيم الحضارة الغربية فى الكيان العربى الاسلامى . فتبنى الحضارة التقنية هو فى الاخير تبنى قيم المجتمع الغربى ومنظماته ومؤسساته .

فيهيم السلفى فى هذه الارض وهو متمزق الضمير ، يرى بألم وشدة أن قيم حضارته وحضارة أسلافه قد أصبحت منفية فى هذا العالم ، لا قيمة لها الآن فى تغيير العالم الذى يسير حسب مشروع ومقاييس تقنية جاءت من حضارة أجنبية ، فلا يرى السلفى كيف يتخلص من تلك القوة الجبارة التى هيمنت على حياة الناس فى بلده المحبوب وحتى على تكوين ابنائه ذلك الضمير السلفى الممزق عرفناه شخصيا فى تجربة المرحوم علال الفاسى .

ويجب الانتباه هنا الى أسباب فشل المشروع السلفى فى المغرب كمشروع تاريخى شامل . لماذا ؟ لان الواقع صراع دائم بين تناقضات الشخص وتناقضات الشخص وتناقضات المجتمع فى آن واحد . ونحن لا نستطيع تجاهل هذا الصراع العنيف بين الفئات الحاكمة خاصة والصراع الطبقى عامة .

يتكلم السلفى عن الوحدة ، وهو يرى أن المجتمع المغربى كجميع المجتمعات متناقض فى حد ذاته ، فما معنى التعادلية ان كانت بين ايدى فئة من Technocrate ومن رؤوس الاموال ؟ ما معنى العدالة الاجتماعية اذا كان رزير التعادلية

هو فى نفس الوقت وزير الرأسمالية الوطنية ؟ ما معنى هذه التناقضات ؟ معناها : استغلال الشعب لتوحيد الرأسمال وتوحيد الطبقة البورجوازية الفتية كما هو معلوم ، والعام لا حدود له ، اذ ان البورجوازية تعلم أنها فوق الشعب ، لا معه وفى مستواه ، فاين العدالة الاجتماعية أيها السادة والسيدات ؟ هذا هو الواقع ـ ونحن كعلماء اجتماعيين ـ نرجع دائما الى الواقع ، وهذا الواقع هو مسألة وجود الموجودات ومسألة تحديد الواقع وادخاله فى ميدان المعاصرة . نعم ، يتكلم الكثير باسم الشعب . ولكن ما هو الشعب ؟ ما هو الشعب المغربى ؟ من الناحية اللغوية ، شعب شعبا الشىء : فرقه . تشعب القوم : تفرقوا . المعنى الاصلى لكلمة شعب يعبر عن الفرق ، لا عن الوحدة والتكتل . وهذا المعنى يوافق الواقع المتكون من من عدة طبقات ودرجات اجتماعية ، من عدة مميزات ثقافية ومن عادات متنوعة . فالشعب كشعب يكون بين الوحدة كمشروع تاريخى وحركة انقسامية بين فروعه فمثال الشعب كمثال الشجرة ينطلق من جذور تاريخية وطبيعية ثم ينمو فى اغصان متنوعة الاشكال ومختلفة الالوان .

العقلانيـة : تكلمت عن السلفية والتقليدية ولم أتكلم حتى الآن عن العقلانية ، العقلانية فى جميع صورها علمية ، سياسية ، ثقافية . فهى متشخصة فى جماعات يومنون بايجابية العلوم وايجابية التقنية والصناعة .

طيب ، لكن عقلانية بلا رجوع الى مسالة الوجود كوجود تكون تطبيقا حرفيا لحضارة الغرب ، غير واع بالجذور الطبيعية والتاريخية التى تزعزعت فيها . وقد حاولت العقلانية التاريخية المغربية ان تجيب عن هذا السؤال .

نعم ، التاريخ مسكن الانسان فوق الارض وتحتها ، التاريخ وحدة الاموات والاحياء فى مشروع تاريخى لا نهائى .

وهكذا يميل الانسان الى تقديس الماضى وجعله مقياسا أساسيا لتغيير الحضارة الإنسانية وتطورها .

من الطبيعى أن تنتشر فى المغرب نزعة تاريخية ، شعار هذه النزعه : التاريخ ولاشىء غير التاريخ . ونشير هنا الى بعض الدراسات المعروفة فى ميدان تاريخ المغرب والايديولوجيه العربية الحديثة . ونحن اذ نناقش بعض الدراسات لزملائنا ، فهذا النقاش لا يعنى اننا نريد النقد للنقد ،ولكن نريده فى سبيل حوار (اذا كان هناك حوار) ، فى سبيل حوار حر يجب القيام بـه بصراحـة ودقـة .

تحاول العقلانيه التاريخية أن تجدد الوعى التاريخى المغربى والعربى وتعطائه مناهج علميه موضوعيه ، متجاوزه النزعه التراثية او التوجيه التاريخى الاستعمارى : هذه النزعه تلح بشدة فى مسألة الاستمرار التاريخى واهمية السيرات التاريخيه الطويله المدى . مثال واحد : مسألة انحطاط الحضارة العربية فى اواخر القرون الوسطى . يلزم رد النقاش الى داخل اشكالية معينة تكون فى مستوى العصر ، فمثلا الاهتمام بنشر المخطوطات بلا اشكالية ولا توجيه نظرى ياخذ بعين الاعتبار المســائل الاساسية للعرب فى عصرنا الحاضر .

الرؤية الاستعمارية لاتبين بوضوح جذور تلك الانحطـاط والظروف التاريخية التى أدت اليه وكانت السبب فيه .

فالانحطاط ليس عبارة فترة تاريخية مظلمة وسوداء كما هو القول عادة ، بل الانحطاط عبارة عن مرحلة من مراحـل التاريخ ، فيها انا ايجابيات وفيها نور منطوى فى طوايا التاريخ.

لا شك فى أن النزعة التاريخية تكون لها أهمية نظرية وعملية كبيرة ، وهى تريد أن تتخلص من مفاهيم ومفاهيم ضيقة كمفهوم الانحطاط المظلم والمتشائم . نحن أبناء العالم العربى ، نحن أبناء المغرب الصغير والمغرب الكبير ، ما زلنا نتساءل : نعم للتاريخ ، ولكن أى تاريخ ؟ ما هو الانسان العربى ضمن هذا التاريخ ؟

هنا يجب التمييز بين بعض المصطلحات :

مصطلح التاريخ ـ مصطلح التاريخ ـ الكائن التاريخى .

أ ـ التاريخ : هو مجموع من الاحداث والاحوال المتغيرة يمر بها كائن ما .

ب ـ التاريخ : من أرخ ، يعنى دون أحوال التاريخ وحللها

جـ ـ الكائن التاريخى : عبارة عن التغيرات التى تحصل جوهريا فى تطور الجذور الطبيعية والتاريخية للانسان ، واشير هنا الى رباعية الوجود .

مثال : التقنية : مسالة التقنية مطروحة للانسانية منذ زمن طويل .

فى رأى (ليفى ستروس) مرت التقنية بثلاث مراحل اساسية :

1 ـ المرحلة Néolithique حيث استطاعت الانسانية اقتصاديا ان تمارس الفلاحة ، واجتماعيا أن تؤسس طبقات ، وحضاريا ان تكتشف الخط الذى استعملته فى المسائل الحسابية وتطور اللغات ..

2 ـ مرحلة الثورة الصناعية .

3 ـ ربما ستكون هناك مرحلة ثالثة : ما بعد الصناعية والتى تميزها علوم كسبرنتيك والاليكترونيك والانفورماتيك ، وابحاث الفضاء .. الخ .

فهذه التغيرات تغير علاقة الانسان بالانسان ، علاقة الانسان بالروحانيات ، علاقة الانسان بجميع الموجودات ، فهى عبارة عن تطور الكائن التاريخى ، واتفقا لهذا المنهج ، يكون التاريخ سواء تاريخيا ، امتاريخيا ، ام عبارة عن تغييرات فى كينونة الانسان والطبيعة .

النزعة التاريخية ليست بالطبع راية موحدة . النزعة التاريخية متنوعة التوجيه ومختلفة فى مناهجها وطرقها .

ـ النزعة التاريخية المتاثرة بالروحانيات وهى تفسر التاريخ كنتيجة لقدرة الاله .

ـ النزعة المتاثرة بعصر الانوار والفكر الليبرالى فى القرن الثامن عشر ، وهى تؤمن بحرية الانسان وحرية عقله فى تغيير التاريخ .

ـ وهناك النزعة التاريخية الحديثة التى انتشرت فى القرن العشرين مع تطور العلوم الانسانية وانتشارها ، وهى تحاول تحليل المجتمع الانسانى من جميع النواحى وقد تاثرت العقلانية التاريخية المغربية بالنزعة الثالثة . فهى تطبق المفاهيم والمقاييس المستعملة فى العلوم الانسانية من غير ان تحاول الرجوع الى الارضية الفلسفية واللغوية والميتافيزيقية لهذه العلوم ، ومن غير ان تاخذ بعين الاعتبار مسالة الكائن التاريخى.

الخاتمة :

ثم تابع المحاضر محاضرته والحاضرون حضورهم ، وربما قلق البعض لهذا الكلام وفرح البعض الآخر . ولكن هذا المحضر ما زال يتساءل لماذا هذه المحاضرة عن المغرب فى وقتنا هذا ؟ لا اراد هذا المحاضر الرجوع الى مسألة المغرب كقضية وجودية جذرية ، محاولا تجاوز الآراء الشائعة والدراسات التخصصيـة المحض ، وهذا الموقف الفلسفى عن المغرب ليس فارغا من نتائج سياسية بالعكس ايها السادة والسيدات فما هور اينا فـى مسألة الوحدة ومسألة الديمقراطية حاليا فى المغرب ؟

فى عصر انتشرت فيه التقنية والصناعة والعلوم وهى تسير فى طريق نظام عالمى تهيمن عليه ارادة قوة جبارة لا نظير لها من قبل ، فى نفس العصر ، ما زلنا نحن أبناء العالم العربى نعيش متقيدين فى هياكل اجتماعية لا توافق المستوى الحضارى للعصر، ولا توافق ضرورياته وحاجياته . فالتغير هو تغيير اجتمـاعى اساسا ومسألة الديمقراطية تكون مطروحة فى هذه الاشكالية .

هل الديمقراطية ممكنة بغير تنظيم طبقى سياسى وتحرير نسوى ، وبغير علمانية تميز بين الروحانيات ومسائل السياسة ؟ وما معنى الوحدة اذا كانت وحدة الحاكمين قبل كل شىء ، لا وحدة المحكوم عليهم بالظلم والفقر والتخلف ؟

وشكرا لانتبـاهكم .

سـالـم يفـوت .

التصورات الوضعية لطبيعة النظرية الفيزيائية

سنعمل فى هذا المقال ، وفى مقالات أخرى تليه ، على تقديم استعراض مفصل لمختلف الاتجاهات الوضعية ، مركزين اساسا على نقط التقائها ، والتى هى نقط التقاء تعكس وحدة الاشكالية التى تجمع بينها كاتجاهات دون ان نهمل مع ذلـك خصوصيات كل أتجاه وفرديته لاسيما وأن عزل الاتجاهات الوضعية عـن ظرفها التاريخى ، قد يؤدى الى ان تفقد دلالتها التـاريخيـة وبالتالى معناها الحقيقى ، خصوصا منها تلك التى ظهرت فى أوج « ازمة » الفيزياء كالاسمية والمواضعاتية وبعض الجوانب من الماخية . وساولى فى ذلك اهتماما أكثر لبعض الاتجاهات دون غيرها ، ومن الاتجاهات التى سوف يشملها عرضى الخاص فى هذه المقالات الوضعية الماخية ، ثم المواضعاتية باقرانها ،واخيرا الاختبارية المنطقية .

أ ــ الـوضعيـة المـــاخيـة (1)

للماخية علاقة بالترحاب الكبير الذى لاقته النزعة الميكانيكية لدى مفكرى وعلماء القرن التاسع عشر ، وربما يترتب عن ذلك من آراء نظرية وقضايا فلسفية صادفت موافقة البعض ومناوءة البعض الآخر . فبعد ظهور النظرية الحركية للغازات ، والتى هى نظرية ترتكز أساسا على مبادىء العلم الميكانيكى النيوتينى، وتحاول تطبيقها على الجسيمات الذرية الغازية ، صار باديــا للعيــان أن طبيعة الحرارة قابلة لان تدرس انطلاقا من معايير واعتبارات ميكانيكية ، لاسيما وأنه ثبت أن الحرارة مظهر من من مظاهر الحركة : اى ان حرارة الجسم هى نتيجة حركــة جزيئاته (2) . فالحرارة التى تحدث الحركة هى نفسها ناتجة عن الحركة . وهذا مــا أكده « كــارنــو » (1796 ــ 1832) فى قانونه المتعلق بتكافؤ الحرارة والشغل والذى يستفــاد منه أن الحرارة طاقة كالطاقة الميكانيكية بل نوع منها ينتج عن حركة الجسيمات وان حرارة الغاز مظهر لحركة تلك الجسيمــات ، وارتفاع الحرارة يرجع الى تزايد سرعة الجسيمات . وفى هذا الرأى تعميم للتفسير الميكانيكى حتى على الظواهر الصغــرى واثبات على أن كل الظواهر تقبل الاندراج فى التصور الميكانيكى العام تكون وتخضع لقوانينه . ومن النتائج الابستمولوجيــة والفلسفية التى ترتبت عن ذلك أن ظهرت تيارات متطرفــة ، جميعها تنطلق من نفس المعطيات الجديدة التى جاءت بها النظرية الحركية للغازات ، لكنها تتعارض فى تاويلها وتفسير مدلولهــا الفلسفى : فمن جهة ظهرت نزعة ميكانيكية مع العالم «هيلمهولتز» (1821 ــ 1894) تعتقد أن الميكانيكا النظريــة تبحث عــن الاسباب المتحكمة فى الظواهر . أى أن هدف العلم فى الاخير ، هو البحث عن الاسباب الثابتة اللامتغيرة التــى تكمن خلــف الظواهر . وبالتالى ان العلم ينظر الى أشياء العالم الخارجى من

زاويتين : بوصفها موجودة فقط بغض النظر عن تاثيراتها فيما بينها • وفي هذه الحالة يطلق عليها اسم مادة • ومعنى ذلك ان المادة موجودة لا تقوم بأى فعل او تاثير ، ولا نعرف عنها الا انها امتداد وكم ، وتلك خاصية لها ثابتة • او بوصفها تختلف عن بعضها بعض بشيء واحد هو تاثيرها أى قوتها ، اما الفروق الكيفية ، فهي لا تدخل في صميم المادة •• فالتغير الوحيد الذى يصيب المادة هو تحولها في المكان اى حركتها • وكل ما يوجد في الطبيعة يؤثر ويتأثر ، بل أن معرفتنا بالاشياء نفسها لا تنتج الا من جراء تاثيرها فينا ، فننتقل من الاثر الى المؤثر أى سبب التاثير ومصدره وهو الاشياء • لذا فكل ما هو موجود ينحل في الاخير الى مادة وتاثير ، أى مادة وقوة • وهما وجهان متلاحمان مرتبطان ارتباطا عضويا وثيقا : فاذا وجدت المادة بدون قوة ، فانها لن تؤثر على حواسنا ، أى أننا لن نعرفها ولن يكون بوسعنا تصور وجودها • فالمعرفة والتصور مصدرهما تاثير المادة فينا • أو بعبارة افضل نحن لا نعرف الا المادة والحركة ، أو المادة والقوة • « وجميع الظواهر الطبيعية ترتد في نهاية التحليل الى حركات المادة • والحركة تعديل للعلاقات الميكانيكية، والقوة هى ميل كتلتين الى تعديل موقعيهما •» (3) ،وذلك بتغيير اتجاههما : فاما تقتربا او تتجاذبا ، واما تتباعدا وتتنافرا • فالقوة اما جابذة او نابذة ومهمة العلم الفيزيائى هى ارجاع كل الظواهر الى قوى الجبذ والنبذ •

ومن جهة اخرى ، ظهرت نزعة أخرى مناوئة للنزعة الميكانيكية المتطرفة ، نشأت هى الاخرى بتأثير من النظرية الحركية للغازات ، وقد تزعمها « رانكين » (1820 — 1872) وسميت بمذهب او نظرية الطاقة • وهى تعتقد ان قانون تكافؤ الحرارة والشغل الذى تبنى عليه الميكانيكية المتطرفة كل اعتباراتها لا يؤدى ضرورة الى القول بان الحرارة طاقة حركية وانها في الاخير

طاقة ميكانيكية . والا أصبحنا نفضل طاقة أخرى وبذا لا نعود نلتزم حدود العلمية والوضعية التي يفرضها علينا التفكير العلمي. ان ما يمكن اقراره هو وجود طاقات متنوعة : ميكانيكية وحرارية وكهربية ... ولا يوجد أي سند علمي يلزمنا بارجاع احداها الى الاخرى . بل ان قانون « جول » المتعلق بتحول الطاقة يعتبر ان هذه الاخيرة تتغير من صورة الى أخرى ومن شكل الى آخر. انها في تحولاتها وتغيراتها تحافظ على كميتها التي تبقى ثابتة ، دون أن يعتبر احداها أهم من الاخرى ، لذا فلا توجد سوى الطاقة : انها الواقعة قائمة بذاتها ولا يمكن ردها الى غيرها : وعلى الفيزياء أن تنظر اليها كذلك : كواقعة أساسية لان المادة بكاملها تنحل في الاخير الى حركة ، وهذه الاخيرة الى تأثير وتأثر أي طاقة . لذا « فالنظرية الفيزيائية يجب أن تتجنب كل فرضية وكل محاولة لتفسير الطبيعة وان تقتصر ، بالتالي ، على اقامة نوع من التناظر بين المعادلات الجبرية ومجموع القوانين التجريبية . » (4)

وقد لاقت هذه النظرية الطاقوية اعجابا كبيرا من طرف العلماء والفلاسفة ، اذ تشيع لها في المانيا ماخ واستفالد ، وفي فرنسا دوهيم . وانطلاقا منها اعتقد ماخ ضمان علمية النظريات الفيزيائية يقتضي تخليصها من الفروض التفسيرية ، لان هذه الاخيرة ستدخلنا من جديد الى الميتافيزيقا وتجعلنا نتخبط في أشباه المشاكل ، والسبيل الوحيد أمامنا هو الاقرار بالحقيقة التالية : اعتبار الوجود ادراكا واعتبار الواقع الطبيعي هو نفسه الواقع الحسي . (5)

هكذا نلاحظ أن « الازمة » الفلسفية التي عرفتها الفيزياء لعبت دورا أساسيا في تحديد مسار الفكر الماخي ، وقد تصور ماخ ان حل « الازمة » يكمن في الرجوع الى كنط وبركلي . لذا

فان الكنطية ونبركليه تعتبران مصدرا فلسفيا استقى منه لاسيما وانهما فلسفتان تلاقيان التقاء غير مقصود أو متعمد مع ما نقول به الطاقوية . وسنشرع الآن فى عرض الخطوط الرئيسية لذلك.

أول ما ينبغى ذكره بهذا الصدد ، هو أن وضعية ماخ سديه المثالية الكنطية ، وقد ظهرت بالفعل فى فترة كان الرجوع والعودة فيها الى كنط موضة شائعة فى أوساط الجامعيين الالمان . لهذا نجد أن ماخ وافناريوس مؤسسى الوضعية الجديدة ينطلقان فى تفكيرهما الفلسفى من كنط . فمثاليه هذا أخير كانت المنطلق الاساسى الذى أقام عليه ماخ بناءه الفلسفى، وهو يعترف بذلك صراحة عندما يقول : ((يجب أن أعترف باعظم الامتنان بان مثالية كنط النقدية هى التى كانت منطلق تفكيرى النقدى باكمله)) (6). ومن اهم ما تاثر به ماخ من كنط هو تمييز هذا الاخير بين ما يمكن للانسان معرفته ، وما لايمكن له معرفته، وبالتالى تمييزه بين الظاهرة وبين الشىء فى ذاته ، ثم الحاحه على أن المعرفة مرتبطة بالظواهر وانها تصدر فى جانب رئيسى منها من التجربة ، وابعاده امكانية قيام معرفة بالاشياء فى ذاتها لا سيما وأن الشىء فى ذاته بطبيعته لا يعطى لحواسنا وبالتالى يستحيل ان نتاثر به وندركه . اعجب ماخ بالشق الاول من الاطروحة الكنطية واحتفظ به ، وفى نفس الوقت لم يعجب بالشق الثانى ، لذا رفضه . فقد صعب عليه ان يبقى وفيا للكنطية التى تركت اثرا قويا فى نفسه ، لذا بدأ ينفصل تدريجيا عنها ، وقد بدأ الانفصال بالتخلى عن كل ما هو ميتافيزيقى فيها لا يمكن للعقل ان يقبله مثل ((الشىء فى ذاته)) و ((تصورات الفهم القبلية)) التى اعتقد كنط انها شروط سابقة على التجربة وتسمح بقيامها. فالماخية اذن كفلسفة مناهضة للمثالية بدأت تتبلور كاتجاه يرمى الى تطهير الكنطية نفسها ، تطهيرها من كل ما علق بها من عناصر ميتافيزيقية طفيلية مثل فرضية الشىء فى ذاته والتصورات

القبلية التى مثّما يريد كنط ــ هى تصورات لا تعطى فى التجربة الفعلية ، بل تدخل فى تكوين الفكر نفسه . وقد كـان مقصـد ((التطهير)) ذلك ، نابعا من شعوره بان الملامح المميزة للعلم والتى تميزه عن الميتافيزيقا مثلا هو رفضه لاى مفهوم او تصور لا يمكن تعريفه بحدود تشير الى عنصر يمكن تمييزه مـن عناصر التجربة الحسية . وان العلم الفيزيائى أصبح يستعمل بصورة متزايدة مفاهيم لا يمكن ردها الى مثل تلـك الاصـول الحسية خصوصا وان الفلسفات ، والكنطيه أهمهـا ، بدات تشيع القول بان القضايا العلمية قضايا تركيبية قبلية لها من الكليه والضرورة ما يلزمنا بعدم القول بأنها قضايا تستمد من التجربة وحدها وباعتبار وجود عنصر غير تجريبى أهم فيها . وقد تصور ماخ انه أمام هذا الموضع ، ليس امامنا سوى وسيلة وحيدة لرد الاعتبار الى العلم وتفنيد المزاعم الميتافيزيية التـى تريد التشكيك فى أساسه التجريبى المحض ، ألا وهى تطهيـر العلم نفسه من الشوائب الدخيلة ، وعدم استعمـال الحـدود والنظريات التى ليس لها علاقة يمكن استنتاجها من وقـائـع التجربة ، اى انكار كل ما هو خارج عن ((حدود التجربة)) اى كل ما يمكن أن ننسب اليه وجودا واقعيا . وقد وجد ماخ ضالته فى هيوم وبركلى . وفى هذا الصدد يصرح : ((لم يكن باستطاعتى ان اظل وفيا (لمثالية كنط) . وسرعان ما تحولت عنها الى افكار بركلى (...) ثم توصلت الى مفاهيم قريبة من مفاهيم هيوم ... وحتى اليوم لا زلت أعتبر بركلى وهيوم مفكرين اكثر منطقية من كنـط بكثيـر)) (7) .

لقد تبنى ماخ الاراء التجريبية ــ المثالية لكل من هيـوم وبركلى وحاول ان يكون منها نظرية معرفة علمية ، لا سيما وان آراءهما تملأ الفراغ الذى شعر به فى المثالية الكنطية ،

فبركلى يركز فى فلسفته على أن عقلنا لا يستمد افكاره عن الاشياء من نفسه ، وبالتالى لا يوجد أى أساس قبلى للمعرفة ، فخلافا للمثاليات الديكارتية والكنطية ينكر بركلى وجود القبلى والفطرى. كما يذهب الى انه يستحيل وجود المادة وجوداً مستقلا عـــن الانسان فى ادراك المادة أو العالم الخارجى هى حواسه . وهذا يبرهن على ان العالم ليس له وجود مستقل عن الانسان بوصفه يدركه ادراكا ذاتيا . فالموجود هو المدرك ، والعالم الخارجى مجرد صورة ذهنية ، والمعرفة العلمية هى معرفة بالظـــواهـــر الحسية ، لذا لا فرق بين الواقع كما هو والواقع مثلما تنقله الينا حواسنا ، فهى اذن صور او لقطات ذهنية تتركب مـــن عناصر احساسية . اما هيوم ، فقد أمد ماخ بسلاح قوى يصلح لتنقية التجربة وتطهيرها من المزاعم القبلية العالقة بها ، فهو يذهب الى أننا عندما ننظر الى الاشياء الخارجية ، نعجز عـــن اكتشاف اية قوة او رابطة ضرورية ، اية صفه تربط المعلـــول بالعلة وتجعل احدهما نتيجة ضرورية للآخر . غير أن تكرار نوع معين من المتتاليات يدفع الذهن بالعادة عند ظهور مظهر حادث معين ، الى توقع تابعه المعتاد ، والى الاعتقاد بانه سوف يظهر لا محالة . فالرابطة الضـــرورية فكرة صفتها من تعودنـــا انتظار ظهور التابع المعتاد كلما ظهـــر الشىء . فهى خـــلاصة احساس وتخيل ، وليست مظهرا قبليا تركيبيا . لهذا حافظ ماخ على الشق الاول من الاجابة الكنطية المتعلقة بنظرية المعرفـــة والتى تقول بان الاحســـاس ، أى كيفية اتصـــالنـــا مبـــاشرة بالموضوعات هو مصدر المعرفة مهملا منه الجانب الذى اعتبره كنط صوريا فى الحدس الحسى ، ومن جراء ذلك رفض كل معرفة لاتتعلق بالاشياء المحسوسة قدر تعلقها بالمبادىء الاولى التى تتم على اساسها معرفة الاشياء . وقد افاده فى عملية التطهير هذه، اى تنقية التجربة من كل ما هو غير تجريبى ، هيوم وبركلى .

وبهذا تبلورت مع ماخ فلسفة ظاهراتية ، تعتبر العالم والمادة مظاهر . والعلم لا يعطينا سوى المظاهر ، فكل حديث عن وجود واقعى خارجى قائم بذاته بانعزال عن الفكر ، حديث هراء ، اذ لا يمكننا أن ننسب للاشياء وجودا واقعيا خارج افكارنا ، او أن ننسب لها علاقات موضوعية تربط فيما بينها كالسببية . فالواقع ، هو واقع محسوس ، وأشياؤه هى أشياء غير متميزة عن احساسنا بها . وموضوع العلم هو الارتباطات بين الاحساسات لا الارتباطات بين الاشياء ، أو الأجسام التى تعتبر احساساتنا صوراً لها . ((ليست الاحساسات ((رموزاً للاشياء)) بل ((الشىء)) هو بعكس ذلك رمز ذهنى لمركب من الاحساسات ذى استقرار نسبى . فليست الاشياء (أو الاجسام) هى عناصر العالم الحقيقى ، بل انها بالاحرى الالوان و الاصوات والضغوط و الامكنة والديمومات (ما نسميه عادة الاحساسات) (8) . فالعالم اذن من صنع احساساتنا ، والهدف الاول للعلم هو هو اعطاء نظرية فى الظواهر وتكوين صور ذهنية مستنسخة الواقع . وانه بالسماح للحواس وحدها بان تكون عناصر المعرفة الانسانية ، وبالتقيد باستعمال الالفاظ والحدود التى تدل على مثل هذه العناصر ، يمكن بلورة معيار صحيح نميز به المعرفة الصادقة من المعرفة غير الصادقة .

واذا كان الوجود الواقعى للاشياء ، هو وجودها كاشياء محسوسة ، وليست كاشياء فى ذاتها او خارج الذهن ، فالموضوعات التى تدرسها المعرفة العلمية تمثل افكارا مدركة ادراكا فعليا بحواسنا ، او افكارا كوناها اساسا من الحواس اذ كل ما نتصوره ، نتصوره ، بواسطة البصر واللمس و السمع والشم ، والمركب الحاصل من جميع هذه الاحساسات نطلق عليه اسما مشتركا ، فالاسماء هى اسماء لمجموعة افكار او صور او صور ذهنية مؤلفة بشكل اساسى من احساسات . من اجل

ذلك لن يكون العلم الفيزيائى سوى بحث يهتم اهتماما رئيسيا باكتشاف العلاقات والارتباطات بين الاحساسات (9) . ان هدف العلم هو وصف العلاقات الملحوظة بين الظواهر والتنبؤ بها ، غير ان ما يقصده ماخ بالظواهر هو الظواهر وقد نقيت وطهرت من كل ما يشوبها من مزاعم قبلية فلسفية مضرة تتجاوز مـــا نسمعه وما نراه وما نلمسه ... فالملاحظة فى حد ذاتها وبمعزل عن اى عنصر آخر ، تمثيل صادق للمعطيات الحسية التى هى البداية والنهاية لكل تصميم وتنبؤ علميين . فمن الضرورى اذن، لكل نظرية علمية فى المعرفة ، ان تكون نظرية دقيقة فى الظواهر نظرية ظاهراتية، لا اثر فيها لاى عنصر (سامى = ترنسندنتالى) ذلك ان الحواس وحدها هى عناصر المعرفة الانسانية ، والمفاهيم اوالتصورات هى الفاظ وحدود تدل على هذه العناصر التى هى بمثابة سنداتها ومراجعها (10). ولما كان الامر كذلك ، يمكننا الحصول على معيار سليم للحكم على صحـــة او عدم صحـــة القضايا : اى مبدا لتمحيص التعابير وتمييز ماله معنى مما ليس معنى من ناحية المعرفة . غير ان ما ينبغى التنبيه اليه هو ان ماخ يلح على ان المعرفة العلمية لا تستطيع أن تتقدم بدون حدود والفاظ وتصورات نربط فيما بينها ربطا يساعدنا على الاقتصاد فى تفكيرنا فى الظواهر وعلى بذل مجهود فكرى اقل نضمن به توفير الوقت واقتصاد الفكر . فتصورات العلم غايتها بالاساس، تمكيننا من تنظيم الفرضيات فى اطار نظرية علمية موجزة وواضحة وهى لا تدل على شىء ويشير مباشرة الى العناصر الحسية .

اذا فان نظرية المعرفة الماخية تقوم على مبدئين مرتبطين : مبدا اول يمكن اعطاؤه اسم « مبدا التجريبية » يذهب الى ان الحواس وحدها هى التى تمدنا بالمعطيات الحقيقية للمعرفة ، او مادة المعرفة . وينتج عن هذا المبدا ، مبدا آخر فرعى ، يمثل

نتيجة هامة ، هو أن التصورات والالفاظ المعتمدة في العلم تحيلنا جميعها الى الحوُس مباشرة ، فهي حدود ترمز الى عناصر حسية أو الى روابط تشير مباشرة الى عناصر حسية . أما المبدأ الثاني ، فهو مبدأ برجماتي ذرائعي ، يعتبر ان مهمة العلم هي الحصول على أكبر قدر ممكن من المعرفة بقوانين الطبيعة وذلك بتكوين صور نستنسخها من الواقع بواسطة ذهننا انطلاقا من الاحساسات الواردة الينا من الواقع نفسه ثم صياغتها صياغة رياضية مختزلة توفر علينا وعلى الاجيال المقبلة عناء البحث في الطبيعة . « فالتصورات العلمية والقوانين والفرضيات والنظريات هي مركبات نقتصد بواسطتها المجهود العقلي ونقيم على اساسها ذاكرة اجتماعية تسمح لنا بنقل ما اكتسبناه بالتجارب الى الاجيال القادمة » (11). فمهمة العلم الوحيدة هي توفير واقتصاد تجاربنا وخبراتنا حتى تستفيد منها البشرية جمعاء . لذا فان العلوم تهتم أكثر بالجوانب النظرية في البحث في الطبيعة ، التي تفيد الانسان بيولوجيا ، اي تضمن بقاءه وحفظ نوعه . فكثير من المفاهيم التي تداولها مثل « الشيء » و « الواقع » و « الجوهر » وما شابه ذلك من مفاهيم ترمز الى مركبات كونها ذهننا من احساسات ذات استقرار وثبات نسبيين ، وهذه العملية تعكس مظهرا من مظاهر ميل فكرنا الى الاقتصاد ، ورغبته في أن يركب احساساته ذهنيا ويخلع عليها أسماء معينة مثل جسم ، شيء ... والسبب الوحيد لذلك هو الحاجة المنفعية والحيوية .

وما يجدر التنبيه اليه ، هو أن المبدئين مرتبطان : ان الفكر يركب احساساتنا ليجعل منها صورا للواقع ، غير أن تلك التصورات لن تكون ناجحة من الناحية العملية والنظرية الا اذا كانت تصورات لا تعلق بها أية شائبة غريبة عن التجربة نفسها، فكل تصور علمي لن يعمل على تنظيم فرضياتنا ضمن نظام

اقتصادي متماسك ما لم يكن تصورا نفي وظهر من البرهنات الميتافيزيقية التي لا يمكن التحقق منها ولا حتى جني فائدة منها. فكل ما يمكن استنتاجه من التجربة ومن وصفها فهو لا يدل على شيء ولا يشير الى ظاهرة قبلية للملاحظة .

... ان هدف العلم هو ان يحل محل التجربة ويعوضها ، ويوفرها ، وذلك باستنساخ صور ذهنية منها وتركيب الاحساسات في الفكر قصد التنبؤ بالظواهر . فهو بمثابة ذاكرة للانسانية تحفظ للاجيال السابقة . « والقوانين والنظريات العلمية لا تضيف الى مجموع التجربة شيئا آخر ما عدا ما هو متضمن فيها ، فدورها يقوم على انتقاء ما هو أساسي وصياغته في رمز . ليس دور النظريات والقوانين هو أن تستنتج عالما مطلقا ، بل أن تختار بكيفية منظمة العناصر ذات الاهمية الحيوية ، حتى يمكن التنبؤ بالظواهر قصد تلافي كوارثها وتسخيرها لما فيه منفعتها . »(12) لهذا فالمعرفة العلمية ليست تمثل معرفة حقيقية تعكس الواقع الموضوعي ، بل هي نظريات وهذه الاخيرة رموز وإشارات تفيدنا عمليا ، أنها نقطة ارتكاز فقط وليست تمثل « أشياء » بالمعنى الواقعي . فالعلم لا يركب من الوقائع الا تلك التي تهمنا اذ الدافع العملي يجعلنا نوجه إهتماما أكثر لبعض الجوانب دون الاخر ، اذ ان ميلنا نحو الاقتصاد والادخار هو الذي يدفع بنا الى أن لا ننتبه الا الى العناصر الطبيعية التي تمدنا بها الحواس ، والتي هي عناصر أكثر استقرارا وثباتا . فعندما نقول اجساما ، فاننا لا نقصد بذلك من وجهة النظر الاختبارية سوى مجموعة من الإشارات والرموز التي تنفعنا في التمييز بين مجموع العناصر ذات الإستقرار النسبي وينطبق هذا حتى على بعض الحدود المعينة التي لا تدل على العناصر الحسية ، أو على أرتباطاتها والتي نجد العلم يعتمد عليها مثل مفهوم العلة والزمان والمكان ، فهي

جميعا مجرد مفهومات ((مساعدة)). وهى غير مقبولة فى التفكير الجهد . فالعتة والتزمان مثلا وسائط نستعملها للدلالـــة على الارتباطات القائمة بين الظواهر ، ولا تملك بذاتها اى وجـــود لعلمى الا بقدر ما تساعدنا فى الاقتصاد فى تفكيرنا وعلى توفير واقعى انطلوجى خارجا عن ارتباطها بالظواهر وعن احساسى بها . الهندسة ذاتها تكون عدما تجريبيا بقدر ما تنطبق علـــى التجربة وبقدر ما تصف علاقاتها العلاقات المكانية القائمة بين الاشياء . اما الاحكام الصورية غير التجريبية التى نعثر عليها فى العلم الرياضى عامة فانها احكام ذات طابع صورى محض يغيب فيها الجانب الانطولوجى التحليلى ، فهى اذن أحكـــام تحليلية لا تشير الى الأشياء ، بل تصوغ قواعد استدلال تسهل تطبيق معطيات التجربة ، والتى هى معطيات تنسقهـــا فـــى النظريات ، على حالات أكثر خصوصية . لذا فجميع القضايا ، قضايا معيار صدقها هو التجربة ، والجانب الذى يهمنا فيهـــا دائما هو جانب النفع العملى والحيوى . ان هدف المعرفـــة العلمية فى نظر ماخ هو ان تكيف بالوقائع ، وان تكيف الافكار بالافكار . اذا تهيأ لنا اعطاء وصف جامع ومانع واقتصـــادى لنظام معطى ، اصبحنا معفيين من اضافة اى تفسير ، اللهم الا اذا كانت لدينا رغبة فى مضيعة الجهد العقلى وصرفه فى طرح فرضيـــات اضـــافية لا طـــائل من ورائهـــا وغير ذات مدلول اختبارى (13) . الوصف تفسير باعتبار اننا نبرز فيه كيفيـــات الظواهر وخواصها ، اما ما عدا ذلك فهو زيادة .

فالمعرفة العلمية ملزمة بان تكون استمرارا للموقف الطبيعى وللواقعية الساذجة و ((فلسفته)) ملزمة بان تتبنى وجهة النظر العادية غير الفلسفية والساذجة ، التى يقول بها جميع اولئك الذين لا يكلفون انفسهم جهد السؤال عما اذا كـــانت الاشيـــاء موجودة او غير موجودة ، عما اذا كان الواقع موجودا او غير

موجود ، عما اذا كانت المعرفة مضوعية أم غير موضوعية . فهو جهة نظر ذحس السديم هى انقى صورة من صور المعرفة .

ويمكن القول باختصار أن وجهة نظر ماخ تعتبر الواقع مؤلفا من عناصر تعطى لنا عن طريق الحواس ، وتمثل هذه العناصر المادة الاولية التى بواسطتها ننشيء مركبات نطلق عليها أسماء : أجسام ، أشياء ، موضوعات ... والاشياء والموضوعات ، لا توجد فى استقلال عن الذات المدركة لها ، بل ان وجودها ينبع من كونها مدركة من طرفنا . فالواقع هو الواقع من حيث هو محسوس . واذا كان ما يطبع الماخية هو اغراقها فى الذاتية والمثالية ، فننا سنجد أن نفس الطابع سيتم ، مع فارق نسبى ، اتجاها ابستملوجيا اخر عرف انتشارا واسعا فى فرنسا هو المواضعاتية ، التى سنتحدث عن أهم جوانبها فى المقال القادم .

الهوامش :

(1) — ارنست ماخ (1838 — 1916) عالم فيزيائى نمساوى ، أثر تأثيرا كبيرا فى جيل المفكرين المعاصرين له ، كما يعتبر الاب الروحى لحلقة فينا ، أكبر الاتجاهات الوضعية المعاصرة .

(2) — الدكتور محمد عابد الجابرى — المنهاج التجريبى وتطور الفكر العلمى — دار النشر المغربية — 1976 — ص 96 — 99 و 134 — 137 .

(3) — نفس المرجع — ص 98 .

(4) — نفس المرجع — ص 99 .

(5) - A. Schaff. Introduction à la sémantique - Paris. Authropos - 1974. Trad. Lisowski, p. 94.

6) - E. Mach - Analyse des sensations - p. 292 - cit. par Lénine. Matérialisme et empriocriticisme. Ed. sociales - Paris Moscou - 1962. p. 201.

7) - Ibid.

8) - E. Mach - La mécanique. p. 473 - cité par Lénine, op. cité p. 38-39.

9) - E. Mach. op. cité p. 38.

(10) ـ راجع هنري ايكن ـ عصر الايديولوجية ـ ترجمة محيي الدين صبحي ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ـ 1971 ـ ص. 113 وبعد.

11) - Leszek - Kolakowski - La philosophie positiviste - Trad. du polonais. C. Brendel - Gonthier - Paris 1976. p. 131.

12) - Ibid. p. 137.

13) - Ibid. p. 139.

حوار مع الفيلسوف. ج.ت. دوزانتــى

ترجمة : عبد السلام بنعبد العالي .

(1)

س : لــم الفلسفـــة ؟

ج : نعم ، ينبغي ان نتساءل لم الفلسفة ؟ وما جدواها اليوم ؟ لقد مضى زمن كانت الفلسفة تدل على المعارف فــي مجموعها ووحدتها ، كما كانت تعني تعريفا لقواعد السلــوك وتحديدا للشكل الذي ينبغي أن تتخذه العلاقات السياسية ، كي تضمن وحدة المدينة وانساجمها فتحقق بذلك سعادة الجميع، هذه السعادة التي كانت تسمى «خيرا عاما» .

وكيف ذلك ؟ لنطالع محاورة افلاطون التي تحمل عنوان « السياسي » ، فنجد أنها تخلص الى القول بفكرة صناعـــة الملك ، تلك الصناعة التي تنسج كل الخيوط التي تربط بــين اجزاء المدينة فترسم على هذا النسيج جميع المراتب الاجتماعية في ترابطها المتدرج ، الامر الذي قد يتولد عنه أسمى خير يمكن

لمجموع سكان المدينة أن ينالوه . فكما لو أن من شأن هذا وحده أن يمكن كل فرد من أن يهتدى ، فى المدينة الى طريق الخير ويسترشد بالاشارة التى تدله على وظيفته الفريدة . والحال أن النساج الاعظم ، ذلك الذى يعين ما هو الخير الاسمى ، والذى يسلط بحديثه الاضواء على الامور فينظمها ويحددها فى ذات الوقت ، ان هذا هو الذى يكون قد حصل على المعرفة. انه الملك ــ الفيلسوف .

فى هاته العهود القديمة ، كانت الفلسفة تلعب دورا شموليا كما كانت متجذرة فى المدينة ويظهر أن حياة الجميع ، شأنها شأن حياة كل فرد على حدة ، كانت تتوقف على الكلام الفلسفى . غير أن كل هذا قد انهار وامحى ، ومنذ زمن بعيد . فاذا ما زعم أحد اليوم أنه فيلسوف وادعى أنه يمارس وظيفة الملك ــ النساج ، فانه قد يكون عرضة للسخرية . ولن تكون تلك السخرية فى غير محلها . فقد يرد عليه ((لا شىء يعنيك من هذه الامور ، عد الى دراساتك ، فلدينا نساجون غيرك ، ليسوا بالفلاسفة ولا بالملوك ، ونحن نتوفر عليهم بكثرة)) . باستطاعتنا أن نحتفظ بهذه الفكرة القديمة فى أذهاننا كى نستخدمها كمرتكز نستند اليه لكى نقيس البون الذى يفصل الفلسفة اليوم كما كانت عليه فيما مضى .

ولنأخذ مشكلة وحدة المعرفة مثالا على ذلك . فهل بامكاننا اليوم أن نحقق هاته الوحدة ؟ يتوقف الامر بالطبع على ما نعنيه بكلمة وحدة . فاذا ما كنت هاته الكلمة تعنى تركيبا يضع المعارف فى منظومة متناسقة ، ويربط فيما بين بعض المفاهيم المؤسسة ، بدعوى أنه يقدم ، انطلاقا من صياغة تلك المفاهيم، صورة متكاملة عن معارفنا ، وبدعوى أنه يخلق فيما بينها بؤرة موحدة من المفاهيم الاساسية القابلة لان تصبح خصبة بفعل

منطقها الداخلى ، اذا كانت وحدة المعارف تعنى هذا الامر ، فاننى ارد بان هذه المحاولة لن تتحقق الا فى الخيال .

وما السبب فى ذلك؟ يرجع ذلك الى اتساع تقسيم العمل الفكرى ، كما يعود الى تنوع اللغات وتعقد كل ميدان من ميادين المعرفة ، وهو يرجع الى العمل المضنى الذى تتنوع خصائصه من مرة لاخرى ، والى ضرورة الانتاج الغزير التى تتجلى عندما تبلغ كل دراسة من الدراسات قمتها ، ينتج عن هذا أن ذلك التركيب لا يمكن أن يكون لا تركيبا صوريا خاليا من كل محتوى، أو على الاقل ، أن من يجرؤ على تقديمه على هذا النحو سيدرك أن مشروعه لن يلقى قبول من يهتم بالنشاط العلمى ، بدعوى انه مشروع يصدر عن طموح مبالغ فيه ، وانه لم يزود بما يكفى من المعلومات ، وانه غير مفيد فى نهاية الامر . وبالرغم من ذلك فلا مانع يحول دوننا وهذا التركيب . الا أن القيام به لن يفيد الا فى ارضاء صاحبه ولكنه لن يكون مغنيا فى حقل المعرفة .

ومقابل ذلك فاننا نلاحظ ، داخل هذا الحقل ظهور بعض الجهات والمناطق المعرفية ، وهى جهات تقع على حدود فروع المعرفة ، انها جهات استراتيجية (كالبيولوجيا الذرية مثلا) . كما أننا نلاحظ بروز بعض اللغات الموحدة والسارية بين مختلف فروع المعرفة . (مثلا المنطق الرياضى واللغات التى تستعملها العلوم الاعلامية) ، وكذا بعض المفاهيم التى بامكانها ان تقبل التوظيف فى مجالات متعددة (كمفهوم الاعلام على سبيل المثال). ويمكننا ان نقول فى هذا المضمار انه ، بالرغم من عدم توفر شكل من الاشكال التى توحد المعرفة ، فهناك اجراءات ومنظومات محلية يمكن أن تكون علامات على الوحدة وطرقا لتسرب فروع المعرفة بعضها الى بعض .

والسؤال المطروح هو أننا ، اذا ما أقمنا داخل تلك الجهات الاستراتيجية ، فهل يكون بامكاننا أن نتصور بشكل جدى ، انتاج شكل موحد قادر على أن يضم المعارف المتمايزة وأن يجرها الى الالتحام فيما بينها فى حركة واحدة ، لا رجعة فيها ، هى حركة تقدمها ونموها وتعمقها ؟ يبدو أن الامر موضع ارتياب ، فاقصى ما يمكن أن نامله (وهذا ليس ببعيد من حسن الحظ) هو ان نعمل على اخصاب جهة من تلك الجهات بفعل جهة أخرى . وأن ننقل نقلا مثمرا هاته المفاهيم أو تلك المناهج . وان نكتشف نوعا من التماثل والتوافق اللغوى بين ميدان وآخر . وان نعمل ، من ثم ، على تقديم نظريات أكثر تجريدا يكون بامكانها أن توظف فى ميادين تظهر فى البداية ميادين غريبة عن ذلك ، بعيدة عنه (وقد علمتنا الرياضيات كيفية القيام بمثل هاته الامور) . كل هذا ليس بعيدا عن الصحة ، ولكن لا شىء منه يعمل على بعث فكرة الكلية المفقودة ، وعلى احياء الصورة القديمة للفيلسوف الشمولى .

وحتى ان نحن سلمنا أن بعض الفلاسفة ينصبون من انفسهم ((مختصين)) فى الربط بين هاته الجهات وفتح الطرق الواصلة بينها . (وليس من العسير أن نعثر على أمثال هؤلاء) فلن يكون باستطاعتهم قط احياء المغامرة التى ارتمى فيها الاغريق قديما . وقد يكونون اختصاصيين مهرة فى فتح طرق المواصلات بين جهات المعرفة ومناطقها ، بيد أنهم لا يمكن أن يكونوا الا اناسا قد جروا الى نهج طرق لا تخلو من دقة وتمحيص ، وبالتالى فانهم سيجدون انفسهم وقد احتلوا ، هم الاخرين ، جهة معينة من جهات المعرفة . بناء على ذلك فيستحيل علينا اليوم أن نعتبر ان باستطاعة الفيلسوف ان يحلق فوق حقل المعرفة سواء فى مضمونها أو طرقها ليعرضها علينا فى وحدتها .

س : وحينئذ ستكون كل معرفة اليوم عبارة عن سجن موصد . مثلما كتبتم في مؤلفكم (**الفيلسوف والسلطات**) على ما أعتقد .

ج : ان كل معرفة هي بكيفية ما نوع من السجن ومعنى ذلك أنه حتى ان حاولنا أن ننتج نوعا من المعارف بحيث تقوم طرقه بوظيفة التوحيد ، فان ذلك النوع ذاته ينبغي أن يشكل بكيفية تراعي الاختصاص . وذلك باستخدام طرق تقنية ، مدروسة اتم الدراسة ، دقيقة اشد الدقة ، كما هو الامر في المنطق الرياضي . ومن جديد سنلاحظ ، نتيجة ذلك ، نوعا من التنافر المتبادل لكون ذلك الذي سيقدم نفسه على أنه سيحقق مهمة التوحيد سينهج طرقا غير مندرجة تحت تلك الوحدة .

وحينئذ يوضع السؤال حول معرفة ما هذا الذي يتبقى تحت اسم فلسفة ؟ هناك شيء أسمه فلسفة ، كما أن هناك فلاسفة . هذا أمر لاجدال فيه . ولكن ما الذي يتبقى تحت هذا الاسم . يقال عادة ، ان ما يتبقى هو ضرورة انتاج لغة مغايرة للغة التي تستعملها المعارف المترابطة، مباينة للغة التي تستخدمها المعارف المتخصصة . وبالتالي ضرورة فحص هاته المعارف وكشف الطريقة التي يتم بها أستعمال الكلام فيها ، والطريقة التي يتم بها الحديث عن العالم بصفة أخص ، ذلك العالم الذي تعنيه دوما العبارات والصياغات التي تشكل معارفنا ، مهما كانت درجة تعقيدها وتجريدها .

وفي هذا الحال ، قد يبدو الفيلسوف كمفكر قادر على ان يتخذ مكانه بصفة جذرية في منبع التجربة ومصدرها ، وعند النقطة التي لا يكون قد قيل فيها عن الامور شيء بعد بصفة نهائية وحيث يكون ذلك غير متعذر . أي ان يتخذ مكانه عند تلك النقطة التي يوضع عندها السؤال التالي : ((أي شيء سأفصح

عن معناه ؟ وهذا الذى أقوله ، هل هو معنى حقيقى ؟ »

أشير هنا الى تلك الطريقة التى كادت اليوم تدخل فى طى النسيان ، أو كادت تصبح مغفولة ، على الاقل ، وأعنـــى الفينمينولوجيا . فهاهنا يمثل الفيلسوف كوعى خاص ، ولكنه وعى صامت . آنه يبدو كما لو كان فى انتظار . وهو ينتظر ، عبر كل ما قيل وما عرف وما أصبح تقليدا من تقاليد المعرفة ، فى مجموعها ، كى يحاول مواجهة ما يمكن ان يشكل المنطلـــق الاساسى للتجربـــة .

ولناخذ الجيولوجيا مثالا على ذلك ، فالفيلسوف هنا يتوجه بالسؤال الى عالم الجيولوجيا . ولكن هل يذهب حتى السؤال عن خطوات المنهج ؟ يقينا . ولكنه بالاضافة الى ذلك سيلقـــى عليه السؤال الاسبق . فيقول له « قبل ان تكون عالما جيولوجيا، قد سبق لك أن تجولت ، وما أكثر ما رأيت من أشياء وأشجار واراض معمورة ، انك رأيت مراعيا وبحارا وأزهارا ، فما شان ما رايته بالنسبة لما تنشؤه من معرفة . هذا هو السؤال الذى أطرحه عليك أنا الفيلسوف .. اننى لا أسالك عن حقك فى الكلام كعالم ، بل أسالك عن تكونك ونشاتك كرجل علم . وانا اكتفى بأن اذكرك انك كنت ، أولا وقبل كل شىء ، وانك ما زلت الى الان ، انسانا اهتم بالاشياء وما زال يحيا بينها بدون انقطـــاع وعلى أشد القرب من تجربتها مثله مثل جميع الناس » .

س : مـــا مآل هاته النشاة ؟ وما هو الجواب الممكن عن هـــذا النوع من الاسئلـــة ؟

ج : نحن بازاء مشكل يمكننا ان نطلق عليه مشكلا فلسفيا. وقد أطلق عليه هذا الاسم بالفعل . وأنا أشير هنا الى الاسئلة التى تجرا على طرحها (موريس ميرلو ــ بونتى) فـــى كتـــاب

(فينمنلوجيا الادراك) كما ألمح الى تلك التى كان (هوسرل) قد طرحها فيما قبل ، فى مؤلفه الذى ترجم مؤخرا تحت عنوان (أزمة العلوم الاوروبية) . يتعلق الامر هنا بالكشف ، الكشف بمعناه الحقيقى ، اى الكشف الذى ينزع تلك القشور المتراصة التى تشكلها معارفنا ، لكى يحاول ان يستحضر ما يمكن أن يظهر كأصل لتلك المعارف وكمصادرها الاولى وبداياتها الجذرية . وانا على أتم الاتفاق مع هذا الموقف ولا ارى فيه اى عيب ، غير اننى اعتقد انه لا يخلو من نوع من التحايل المخادع ، وهو يقوم على مصادرة يسلم بها دون نقاش . وتلك هى المصادرة الاتية : ((ما الذى يضمن لى ان الذى ينظر الى المشهد ، او الذى نظر اليه فيما قبل ، قد نظر اليه بعين شمولية تجعل من هذا المشهد مشهدا بالنسبة للجميع ؟)) .

ما الذى يضمن لى مثلا ان (طاليس) قد رأى نفس السماء التى نراها نحن ؟ ما الذى يضمن لى ذلك ؟ على اذن أن أؤسس ذلك الضمان وأدعمه . ومن اجل ذلك فأنا مرغم على الخوض فى بحث شديد الصعوبة ، بحث يكون من اللازم على عند بلوغ نهايته أن أؤسس ما يمكن أن يطلق عليه ثبات المعيش عبر التاريخ .

والحال أننى حينما أتكلم الان عن انسان (الكرومانيون) كما لو كنت أتحدث فعلا عن انسان ، فاننى أقنع نفسى ((نعم، لقد كان انسانا)) . ولكن ما معنى انه كان انسانا ؟ معنى ذلك أنه لم يتعامل مع نفس الاشياء ، التى نتعامل معها نحن ، ولا مع ذات الموضوعات ، بل ، قد أحس بنوع من الالم فكان عليه أن يعبر عن ذاته . وأنا استطيع أن أكشف عن الكيفية التى عبر بها من خلال الموضوعات الثقافية التى خلقها ، ولكن مهما كانت الكيفية التى استعملها فى الكشف فاننى أفترض أن هذا أمر يصح

أن يكون موضع كشف . وبالتالى أن هناك معنى دفينا هنا . وأن هذا المعنى يتكون مما صنعه ذلك الانسان الذى كان هناك، فى تلك العهود والذى اختفى الآن .

هذا ما أضعه الآن فى أنساتيتى الحالية الراهنة ، انساتيتى الوهنة العابرة . وحينما تقوم مهمة الفلسفة فى الكشف عن هذا المعنى الاولى ، هذا المعنى الذى يضع الاساس الحقيقى ، يطرح السؤال المتعلق بأسيس اثبات للعيش عبر التاريخ فى حضور الحاضر وحده . ولكن الغد لا يكون أمس ذلك اليوم بالنسبة لمن تجرد من السلاح ونزع عنه المعارف وعلق الحكم .

س : لا وجود للفلسفة اذن بدون علم ؟

ج : الامر كذلك ينبغى علينا أن نستسلم لتلقى المعرفة من العلوم ، حتى درجة معينة على الاقل . فاذا ما أردنا ان نطرح المعارف بصفة نهائية وان نستحضر التجربة الصامتة كما زعم البعض ، فان هاته المحاولة ستكون من قبيل الخرافة. ذلك أنه لا وجود لتجارب صامتة ، فنحن نتكلم دوما فى اطار حقل من المعقولية وفى اطار تقاليدنا وفى سياق ثقافى معين، وأخيرا ، فاننا نتكلم دوما داخل نسق من العلاقات الرمزية التى تحدد مجال امكانيات حديثنا دون أن تعين ذلك الحديث تمام التعيين.

وبناء على ذلك فاذا ما نحن أردنا أن نطرح معارفنا بصفة نهائية ، واذا ما اردنا أن ندرك التجربة قبل نشأة الكلام الذى يعبر عنها ، فان هذا يظهر لى كذلك من قبيل الخرافة . ويبدو لى اننا تجاوزنا هاته الخرافة مثلما تجاوزنا خرافة الملك ــ الفيلسوف . صحيح انها توجد على طرفى نقيض من هاته ولكنها تقوم بنفس الوظيفة ، بالرغم من التواضع الخداع الذى تنطلق

منه . ووظيفتها هى ان تضمن استمرار ذلك الوعى المطلق الذى يصدر عنه وحده الكلام الاصلى .

علينا اذن الا نحاول أن نستغنى عن تحليل المعارف ، ونحن ملزمون أن ننكب عليها وأن ننظر اليها فى صورتها ومحتواها . وان نفحص ذلك المحتوى فى اكثر اشكاله دقة ومعاصرة وتعقيدا . ونحن اذ نقوم بذلك ، فليس من أجل ترديد تلك المعارف أو تاسيسها ، ولكن عسى ان نهدم الاسوار التى تفصل بين فروعها وان ننزع عنها كل طابع قدسية وننزلها من ابراجها فنضعها فى متناول معظم النـاس .

* * *

(2)

س : ولكنكم ما زلتم تمارسون الفلسفة ، فما الذى يلزم القيام به كى تستمر الفلسفة فى الوجود ؟ ولمـاذا تمـارسون الفلسفـة ؟

ج : خلاصة ما تطلبونه منى هو أن ادلكم على الافق الذى يتفتح أمام الضرورة الفلسفية . لاننا لا ينبغى أن نتجاهل وجود هذه الضرورة ، الملحة ، فهى تتخذ أشكالا متنوعة بله أشكالا متضاربة . الامر الذى يبعث على القلق . وهناك حاجة ماسة الى الفلسفة عند جميع الناس . فكلهم يطرحون أسئلة تتعلق بما يقومون به من أعمال . كما يتعلق بالمعنى الذى يمكنهم أن يعطوه لحياتهم او لا يمكن ان يعطوه اياها ، تكون حياتهم المهنية غالبا ما تكون روتينية خالية من المعنى . انهم يتساءلون اذن هـذا السؤال : « لماذا آل بى الامر الى هذا الوضع ؟ » .

ثم أن هناك أسئلة غاية فى الأهمية لم يستطع أحد أن يجد لها حلا مرضيا . وهى الاسئله التى تطرح فيما يتعلق بالموت والالم والمرض . كما أن هناك مواقف يضجر من جرائها الناس أشد الضجر فتقلق راحتهم مثل الحرب والاخطار التى تثقل كاهل العالم . يشرع كل منا فى الاجابة عن هاته الاسئله المتجذرة فى حياتنا البشرية ، كما يبدأ فى اقتراح بعض الاجوبة ، اى فى تكوين مفهوم يجد فيه عزاءه او يظل يقلقه . وهذا امر لا يهم كبيـــر أهمية المهم هو أن كلامنا ينظم عـــالمه على هـــامش المعـــارف وباستخدام أشكال من المعرفة ما زالت لم تكون بعد ولم تصغ الا صياغة عائمة .

انه عالم متقلب ، عالم من الافكار الواهية او ذات الشان الكبير ، ذلك الذى يتغذى عليه كل منا ويستفهمه ويعدل منه حسب ملابسات حياته . وهو عالم ينتهى بان يصبح عنصرا من العناصر المكونة لشخصيته . نخلص اذن الى القول ان كل الناس من وجهة النظر هاته ، ما ان يستنيروا بدرجة معينة من الوعى ويستخدموا لغتهم الام ، حتى يكونوا فلاسفة . وهم يكونون كذلك بمقدار ما يبلغه هذا العالم من انتظام ، وبمقدار ما يناون عن العيش فى تنافر وتقسيم . فيحاولون ، على العكس من ذلك ، أن يعيشوا فى وئام ووحدة داخل الحاضر الذى يحيـــون فيه ، كاشخاص يحيون فى التاريخ ويستعملون الكلام ، ثم يسعون الى الى ان يبرروا هذا النوع من الوحدة الذى يزودهم به مجرى حياتهم الشخصية والاجتماعية .

هناك ، الى جانب هاته الفلسفة ، وعلى طرفى النقيض منها ، هناك ما اطلق عليه فلسفة المحترفين . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار الفلسفة التى تسود اليوم والتى تستخدم اللغة الانجلوساكسونية اى الفلسفة المسماة بالتحليلية (ولكن الاسم

لا يهم) ، فان هاته الفلسفة تظهر ، هي كذلك ، نوعا من المعرفة المنظمة المتجسدة في أجهزة اجتماعية ، وهي تضم مدارس تتنافس فيما بينها في أغلب الاحيان ، ولكنها تتعاون أيضا ، وتتبع مناهج معينة في التعليم وتخضع لطقوس خاصة وتمرينات معينة . هاته المدارس تعرف اليوم انتاجات عديدة الاهمية ، لا تخلو من مهارة ودقة ومنفعة . غير أنها لا تتجاوز حدود العمل المدرسي ، وهي تتم داخل حقل الدراسة المختصة مثلما أن الجبر أو الطبولوجيا التفاضلية تنمو في حقلها الخاص. الشيء الذي يجعل من الانبهار والغرابة في أسوأ الاحوال ، أو بنوع من اللامبالاة وعدم الاهتمام في احسنها .

فاذا ما توجه رجل عادي بالسؤال الى أحد أفراد هاته الطائفة عن المشاكل التي تقض مضجعه (أي تلك المشاكل التي تتعلق بالحياة والموت وبتنظيم الرغبات وبالشرور التي تقع في المجتمع ، وبمسائل أخرى غيرها ربما كانت محصورة العدد) فماذا تتوقعون أن تكون اجابة هذا القس المختص الذي تكمن وظيفته في تنميق الحجج والحذلقة الكلامية ؟ انني أخمن أن هذا الرجل العادي سيعود على أعقابه .

لاحظوا ان اجوبتي تتخذ صورة سلبية لا تشفي الغليل . فانا أقتصر على سرد قائمة تلك العمليات التي يصبح فيها الفيلسوف على الهامش . أيكون علينا الآن ، أن ننظر الى الحالة التي يستمر فيها وجود الفيلسوف ونفترض انه أصبح من جديد جزء لا يتجزأ من حياة المجتمع ؟ انني أرد على ذلك بالايجاب . نعم ينبغي افتراض ذلك . غير ان جوابي لا يعدو أن يكون مجرد امنية . ومع ذلك فمن اللازم ان ندرك أن الفلسفة قد تقضي على ذاتها اذا هي لم ترتبط بحاجيات الانسان العادي أو اذا هي سجنت نفسها داخل دير قساوسة جدد.

من المفيد فى هذا المضمار ان تكون كثير من اليوتوبيات قد جاءت لتطعم صرامة النقد وتقويه . انها فلسفة طوباوية ، تلك التى تقول بحلول فيلسوف قادر على أن يقيم تساؤله الحى بالاستناد الى ما بداخله ، ودون الاستعانة باى خبير . فهذا الموقف يعتبر اليوم مجرد يوتوبيا . ولكنها ، بالرغم من ذلك ، يوتوبيا بامكانها ان تصد عنا طريق الحلم الى الابد . وان تمهد لمقدم ذلك العالم الذى تهتز فيه العلاقات البيداغوجية والذى يصبح فيه الانسان خبير نفسه فى الامور التى تقض مضجعه . وكما نعلم ، ينبغى من أجل ذلك أن تحول العلاقات الاجتماعية والسياسية . الا ان الحالة الراهنة لا تبشر بأن الامر سيتيسر فى القريب العاجل . وفى انتظار ذلك ، تبقى أهمية النقد والحذر واثارة المشاكل ، حتى وان كان الامر يتعلق باكثر بداهتنا تجذرا وأكثر عقائدنا عزاء . ولا ينبغى لاى منا ان يخلد الى الراحة والاستكانة . واذا لم يكن ذلك ممكنا بالنسبة لمجتمعنا ، اذا تعذر ان ينصب النقد على المجتمع ، فليهتز ، على الاقل ، عالم كلامنا المتجمد وليحد عن الاستكانة والركون .

س : ها نحن نلفى أنفسنا بصدد الحديث عن مشاكل متعلقة بالمجتمع . وقد سبق أن كتبتم ، ما دمتم تمارسون فلسفة صامتة ، سبق ان كتبتم أن الخيوط التى تشيد مجتمعنا قد بدأت تتفكك وان نسيج المجتمع قد أصبح مليئا بالثغرات . لذا أوجه لكم بهذا الصدد سؤالين : اين هى تلك الثغرات وأين يتجلى ذلك التصدع ؟ ولماذا ابتدأ الآن ؟ وهل نسيج المجتمع لم يبدأ الا الآن فى التمزق ام مضت عليه قرون وهو على تلك الحال ؟

ج : اذا اردنا الا نخطىء الصواب ، فاننى أعتقد ان المجتمع لم يخل من تلك الثغرات قط . لكن هاته الثغرات قد اصبحت متسترة وكما أنها قد اتسعت بفعل حياة المجتمع فاصبحت

بسياج فرضته بنية المجتمع . وفى أحسن الاحوال ، فان حركت التغيير الكبرى التى عرفها التاريخ قد أدمجت تلك التصدعات فى ذاتها فأعادت نسيج خيوط المجتمع . والتصدعات التى أعنيها الآن لا يبدو فى الظاهر ان لها شأنا كبيرا . وبكون تلك التصدعات قد ظلت متواضعة محلية ، فيبدو أنها لا تهم الا شؤونا بسيطة فى الحياة اليومية ولا تعنى الا مواقف لا قيمة لها وأساسا لا ملة لهم ولا شريعة كالسجناء والغرباء وأولئك الذين يظهر أن لا أوطان لهم أى أولئك المهجورين المرفوضين الهامشيين والذين يحيــون بالرغم من ذلك . انهم يعيشون حياتهم الاجتماعية خارج النسيج الاجتماعى ، ولكن فى المجتمع بالرغم من ذلك ، وهذا هو مــا يسمى بالتمـــرد .

ان هاته التمردات تولد فى بعض الجهات بصفة تلقائية غير منظمة وهى تتعنت لوقت من الزمن ثم تنطفىء شعلتها وتموت لتظهر من جديد فى اماكن اخرى . وانا لا اريد هنا سردها ، الا اننى اشير على الاقل ان ايطاليا والمانيا لم تعودا اليوم وحدهما مثالين على ذلك النوع من التمرد . فينبغى ن ناخذ فى اعتبارنا ايضا التصدعات والانفجارات المحلية التى تقع على هــامش الاحزاب السياسية والهيئات النقابية . فهذه التمردات ، وان لم تكن خاضعة لاى توجيه او تنظيم ، فانها تحدث على الاقل وهى تتميز اساسا عن التصدعات البنيوية الكبرى من حيث انها لا تاخذ قصب السبق فى رسم النسيج المجتمعى كما هو الشان فيما يتعلق بالصراعات الطبقية . فهاته الصراعات ، ما ان تصبح واعية تتجســـد فى نظرية حتى تؤدى دومــا الى اقــامة منظومة من القواعد الاستراتيجية الموجهة والمنظمة .

الى حد الآن لم يكن استعمال هاته القواعد يعنى الا حالة معينة للمجتمع ، حالة يتعين الاحتفاظ بها وانعاشها او يتعين

قلبها وتغييرها لاحلال حالة أخرى محلهـا . ولكـن الرابطـة المجتمعيه تظل قائمة كضرورة اساسية انها تظل هى الخبـر الاسمى والسند الاساسى . ويظهر لى ان الوقت قد حان اليوم كى يصحح هذ السند . واذا نحن لم نول عنايتنا لهاته الظاهرة، اذا لم نحاول فهمها واذا حافظنا على تلك الصورة القديمة عن الشمولية واذا ما أبقينا على الافكار الاستراتيجية العتيقة ، فاننى لن أتردد فى القول اننا سنظل خارج عصرنا وسنؤدى ثمن ذلك العمـاء غـالبـا .

ها هى ذى مجتمعاتنا تبلغ مستويات تصبح منها غريبة عن ذاتها . انها تذق تلك التفرات التى يتسرب من خلالها جوهر المجتمع . ولكن مجتمعنا ما زالت تحيا بالرغم من ذلك لذ تساورنا الرغبة لتكرار ما تم فيما مضى فى الوقت الذى كانت تولد فيه التمردات العمالية الاولى ، وللبحث عن الخلاص فى علم معين من العلوم ، ومجمل القول ان الرغبة تساورنا فـى محاولة فهم هاته التصدعات وتحديد صورتها وتنظيمها فى جبهة واحدة بردها الى أشكـال معروفة ومدروسة من اشكـال الصراعـات .

لنقاوم هاته الرغبة التى تساورنا حتى وأن اقتضى الامر عدم فهم تلك الظاهرة . ولندع الظاهرة تتجلـى فى تلقائيتهـا وتشكلها الطبيعى المبسط . وعلينا ان نتساءل عوضا عن ذلك : لابد أن يكون هناك فى مجتمعاتنا شىء قد أتى على نهايته ؟ أليس ما قد استنفد الآن هو ما كان يهمنا أشد الاهتمام ، وما لا نستطيع أن نستغنى عنه الا تحت التهديد . وما كان سبب اطمئناناتنا الظاهر ، ومنطقنا الامين ، ورفاهيتنا المعتادة ؟ أليس هذا الاستنفاذ هو ما يتجلى فى تلك الاماكن التى يعجـز عنهـا مجتمعنا عن ادراك حقيقته ؟ وهؤلاء الذين يدعون عندما يقومون

بالتمردات اليسوا بما يقومون به من انكار ، اليسوا مدافعين عن الطابع التكرارى لسلوكنا المجتمعى ؟

انني اجيب عن هاته الاسئلة بما يلى :

« أجل ، ان الامر على تلك الحال . فنحن نحيا «جبارية التكرار »» . وانه لامر اساسي أن يعى معظم الناس ذلك قبل ان يحل اليوم المر الذى تكون فيه اليقظة .

س : ألا يكون العقل ذاته هو الذى استنفذ امكانياته واثبت عجـــزه ؟

ج : أنا لا اذهب حتى هذا المذهب . ولا أعتقد أن العقل سيستنفذ أمكانياته مادام هناك اناس يولونه عنايتهم ويزعزعونه بانتقاداتهم . الشيء الذى لابد وأن يؤتى اكله . ولكن لنكن على حذر . فنحن فى موقف حرج . اذ ليس هناك فى ما نطلق عليه « معقولية » ما يمكن أن يبعث على القلق . بل أن الامر على العكس من ذلك تماما . وأريد ان أقول بأن المعقولية تبعث على الاطمئنان . وهنا يكمن صميم المشكل . فنحن لا نمس ما يبعث على الاطمئنان ولا نقرب منه بل اننا نضفى عليه طابع القدسية وننظمه فى طقوس خاصة فنحنطه ونحافظ عليه . وها نحن من جديد ضحية عجلة التكرار .

ان الامر يتم كما لو ان كلا منا يرجع الى الآخرين لمعرفة منطق الاشياء . وكما لو كان يشجع على القول بوجود منطق جاهز للاشياء ، ويرعاه حراس مجهولون . كلا ثم كلا . وعلينا ان نكف عن مثل هاته الافكار . وعلى كل منا أن يكون مسئولا عن ذاته وحارسا لنفسه . وعلينا ان نتعود ذلك والسعى وراءه دون هوادة ولا كلل . واذا ما اردنا ان نحصل على حياة عقلية لا تسقط فى الاجترار والتكرار فعلينا ان نقوم بذلك . والحال

اننا مازلنا لم نف بالمطلوب . فهل بامكاننا ان نندهش ونستاء اذا ما علمنا ان اغلب الناس اليوم يزعجون العقل ويستنكرونه عندما يرفضون ببراءة ذلك الاجترار وعندما يسعون وراء الابداع والخلق ؟ وأفضل ما ينبغى أن نقوم به هو فهم هاته الظاهرة .

س : هل يتعلق الامر بما كان (ميرلوبونتى) الذى اشرتم اليه منذ حين ، يطلق عليه « تدهور التاريخ » . ؟

ج : نعم ان التاريخ يتدهور بمعنى ما . وهو يضيع فى الرمال وينغمس فى صورته . فلم تعد هناك اختراعات والحلول التى نقترحها لم تعد الا نوعا من الترميم . فنحن نحيا داخل منظومة من التراكيب المنطقية ولا نستخدم الا المعطيات الجاهزة. وان هاته الظاهرة هى التى تولد الرفض وتخلق التمرد .

س : كيف يمكننا أن نقاوم ذلك ؟ وكيف يمكننا أن نساهم فى تخطى ذلك على المستوى الفردى وبشكل متواضع ؟

ج : لا أعتقد أن هناك حلولا عامة شاملة ، ولكن باستطاعتنا ان نحدد بعض المواقف الاخلاقية التى تتمتع مؤقتا بنوع من المعقولية ، وبامكاننا أن نعمل على توسيع تلك الثغرات التى أشرنا اليها وان نقاوم الحرج .

س : هل يعنى ذلك أن علينا أن نحتج ونعارض .

ج : أجل . علينا أن نحتج وأن نترك السبيل لكل أنواع الاحتجاج والمعارضة وندافع عنها انها تقوم بالضرورة شاهدا لصالح مجتمعنا . فعلينا الا نخنقها .

س : هل ينبغى ان نشجع الاحتجاج حتى وآن بدا ضعيفا غير ذى شان فى بعض الاحيان ؟

ج : حتى وان بدت الاحتجاجات غير ذات شأن كبير فانها علامة تدلنا على احوال مجتمعنا وهى علامة ايجابية انها علامة على الرفض • وقد تردون على بان هذا الأفق ضيق وأنه يشرف على الميدان السياسى وان هذا الامر يبعث على الكدر • الحقيقة انه افق ضيق ونتائجه ضعيفة • الا انه لا يبعث على الكدر • والخطير هو ان نعيد من جديد ما كان قد قيل : ((ها هنا اناس يحتجون هنا ، وآخرون هناك ، ، وآخرون فى مكان آخر ، وها هو ذا النسيج المجتمعى يفلت من قبضتهم جميعا • فهل من الممكن توحيد هذه الجهود وتشكيل جبهة موحدة للصراع ؟)) اذا ما نحن طرحنا هذا السؤال ، فاننا نكون قد حكمنا على انفسنا بالوقوع فى الاجتـــرار والتكرار • فنربطهـــا بمعجـــلات الاستراتيجيات وقواعد التنظيمات ، وحينئذ فسيولد فى أمكنـــة أخرى انفصام جديد للنسيج الاجتماعى •

كلا ! علينا الا نركن لهذا ولندع المجال خاويا لامـــــاكن الرفض وفراغاته • وذلك لان هاته الفراغات ذاتها هى ما يلزمنا أن نتعلم التساؤل عن معناه حتى وان كان المستقبل لن يكون فى صالحهـــا الا اننا لا ينبغى ان نقهرها ونخضعها لسيادتنا •

عن جريدة لوموند المؤرخة
بتاريخ 8/7 مارس 1978

* ج• ت• دوزانتى   Jean Toussaint Desanti

الآن بجامعة السربون ، من مؤلفاته :

— Introduction à l'histoire de la philosophie.
— Les Idéalistes mathématiques.
— La philosophie silencieuse.
— Le philosophe et les Pouvoirs.

محمد زنيبر

تراثنا الفني . . لماذا ؟

(3)

الآن وقد أمكننا ان نتعرف بسرعة كبيرة على بعض مظاهر الفن الاسلامي وعلى مستودعه الاساسي الذي هو المدينة ، آتي الى الموضوع الاول الذي يثيره هذه التراث الفني بالنسبة الينا ، نحن ابناء القرن العشرين الذين تعرفنا على الحضارة العالمية وغزتنا من كل الجهات ، واعني بذلك الاشكالية التي يطرحها علينا .

اشكالية التراث الفني :

والاحظ ، أولا ان تلك الاشكالية لم تكن موجودة منذ جيلين او ثلاثة أجيال ، على الاكثر ، بالنسبة للعالم الاسلامي عموما ، اذ كان المسلمون لا يفكرون في تغيير تقاليدهم الفنية ويسكنون في نفس المدن ونفس البيوت التي سكن بها أجدادهم منذ قرون ويلبسون اللباس ويستعملون نفس الاثاث (1) .

لكن ادى الاتصال مع اوروبا الى ما كان لابد من حدوثه في المجتمعات الاسلامية ، الاقتناع المتزايد بتفوق الحضارة الجديدة التي انطلقت من اروبا على كل الحضارات التقليدية في

الصين ، فى الهند ، فى العالم الاسلامى ، ومن المعلوم ان اول دولة سلمت بهذا التفوق كانت هى مصر ، ثم الدولة العثمانية فى القرن الماضى ولعل آخر دولة ظلت تتردد فى مثـل هـذا الاعتراف كانت هى اليمن ، ولكنها لم تستطع أن تقاوم تيار التاريخ (2) فكانت احدى النتائج لهذا الحدث التاريخى العظيم أن تغيرت شيئا فشيئا نظرتنا الى الفن ، مقتفين فى ذلك اثـر الاروبيين . وهكذا أصبحنا نخطط المدن على منوالهم ونبنـى الفيلات والعمارات ونرتدى لباسهم ونستعمل أثاثهم . ونبحث باستمرار عن ابتكاراتهم لنتخذ منها نماذجنا . وقد يثور البعض منا على هاته الظاهرة، وقد يحاول أن يعاكس السير فى هذا الاتجاه باسم التقاليد او باسم ((الوطنية)) أو باسم ((الاصالة)) ولكنه يضرب فى حديد بارد ، لان التطور لابد منه ، ولان العودة الى الماضى امر مستحيل كما فهمه المعرى منذ قرون :

امس الـذى مـر علـى قربـه

يعجـز اهـل الارض عـن رده

فالمشكلة اذن هى تحديد علاقتنا بذلك التراث ، وهـذا موضوع اصبح كلاسيكيا فى فكرنا المعاصر ، وتطرق اليه كتاب ومفكرون منذ عهد جمال الدين الافغانى الى اليوم . ولذلك ، فلن اعود الى النظريات المختلفة التى قدمت فى شانه ، لانـى مقتنع بانها لم تقدم الحل السليم فى هاتـه القضية الحيويـة بسبب تهربها من رؤية الواقع فى كل ابعاده (3) .

1 — ان اعجابنا بتراثنا الفنى شىء ، ومحاولة المحافظة عليه كما هو شىء آخر . فنحن حينما نعبر عن اعجابنا بـه نربط بين عنصرين : واقعه كفن ملموس ، من جهة ، والتاريخ، من جهة اخرى . فالتاريخ مرجعنا الاساسى لتقييمه . فاذا

جردناه من تاريخيته واردنا ان نجعل منه شيئا مطلقا خارجا عن الزمان ، نقع آنذاك فى الخطأ . وهذا يعنى اننا اذا حاولنا ان نستعمله اليوم على صورته التاريخية ، نبرهن عن قصور فى التفكير وفساد فى الذوق .

2 ــ اننا فى غنى عن مثل هاته المحاولة ، لان الماضى مازال داخلا فى حاضرنا باقوى صورة يمكن أن نكون ، ويكفى ان ننظر الى مدننا الحالية لنشاهد الماضى معششا فيها بكل مكان . هناك احياء كبيرة باكملها خارجة كلها من جوف التاريخ مازالت قائمة بين اظهرنا نماسيها ونصابحها . لكن بدل ان ننظر اليها بتقدير واعجاب ، نرى فيها ، بالعكس ، شاهدا على تخلفنا . ولا ادل على ذلك من كون الكثير يهربون منها كلما اتيحت لهم الفرصة (4) .

لماذا هذا الموقف ؟ السبب الاول هو ان الناس اذا كانوا يحبون ان يطلعوا على التاريخ فى الكتب والافلام فهم لا يحبون ان يعيشوا فيه حياتهم الحقيقية ، ويفضلون ان يعيشوا عصرهم وبافكار عصرهم لا بافكار اجدادهم . السبب الثانى هو ان هذا الماضى الذى نكتشف بين ظهرانا ماض مفروض علينا فرضه علينا العجز من التخلص منه ، فرضه علينا البؤس والفقر . فهاته الاحياء القديمة ذات الازقة الضيقة الملتوية والدور الهرمة المتداعية اصبحت من مآوى الجماهير الفقيرة ، فهى تحافظ عليها لا بدافع الغيرة على الفن ولكنها عاجزة عن تغييرها .

معنى هذا ان الماضى مازال يعيش معنا ، انما هو ماض وحشى ، لم يكن لنا فيه اى اختيار ، وانما يمثل ما سمحت الاقدار ببقائه من مخلفات التاريخ ما بين غث وسمين . فلم يكن هناك اى معيار فنى يرشد تصرف الاقدار فى اتلاف شيء

والإبقاء على شيء آخر . فما ابعدنا بعد هاته الملاحظات من صورة التراث الذى يفرض التقدير والاحترام ؟

3 — لكن هذا آت من موقفنا السلبى ، لاننا نتسلم ذلك التراث بنوع من اللامبالاة دون أن ننظر اليه نظرة تفهم وحوار . هناك اجانب من اوربا وامريكا يقدمون الى بلادنا ويبحثون عن دار بالية فى احد الازقة العتيقة . واذا ظفروا بها هتفوا رضى وارتياحا كانهم حققوا امنية فى حياتهم . ونتعجب من موقفهم وينسبها بعض المتسرعين منا الى بلاهتهم . ولكن اى بلاهة هذه ؟ ! تجد الرجل من كبار الفنانين او الشعراء او الفلاسفة اى من ذوى العقول الصقيلة المتفتحة يعشـق بيته البلـدى البسيط ويحدثك عنه حديثا طويلا ، فكيف لا نحمل موقفه محمل الجـــد ؟

حقا ، انه يخضع لعامل تغيير المألوف ، ولكن المألوف لا يتغير الا بما ينسيه ويحل محله اى بشيء آخر ينطوى على نفس يصعب تحديدها . والفن بتعبيره الفنى وبالمناخ الذى يخلقه القوة الشعورية ، على بديل انسانى يستجيب لنداءات ذاتية هو الذى يستطيع وحده أن يتجاوب مع قصة كل انســان . وهنا نكتشف سر ذاك الأجنبى الذى تــرك وراءه ناطحــات السحاب والشوارع الفسيحة والحدائق المقصوصة المرتبة ليسكن ببيت صغير فى « قصبة الاوداية » أو قرب « جامع الفنا » انه وجد شيئا كان يبحث عنه . ما هو ذلك الشيء ؟ هذا ما يجب أن نبحث عنه ، نحن ايضا . وحينما نكتشفه ، نكون قـــد اكتشفنا الجانب الدفين فى تراثنا الفنى (5) .

وهنا نلمس اشكالية ثانية : اشكالية التقييم العادل .

اشكاليــة التقييــم المــادل :

لربما كانت هاته الاشكالية أشد تعقيدا وتشعبا مـــن الاولى لانها بمستويات مختلفة من التراث الفنى، ولذلـــك فسنقتصر فى هاته العجالة على بعض جوانبها المهمـــة .

هناك ، بادىء ذى بدء ، خطا شائع يحدث فى طريقـــة الاتصال بالموضوع . فكثير من المثقفين يلجونه ، وهم تحـــت تاثير فكرة مسبقة توجههم سواء فى التحليل او التقييم . هاته الفكرة هى انهم يتناولون حقبة مظلمة وفارغة مـــن التاريخ : القرون الوسطى . وقد اعتدنا كلما أردنا أن نزدرى بشىء أن أنقول انه يرجع بنا الى القرون الوسطى وهذه عادة فى التفكير والحكم أخذناها عن الاروبيين كماهى، وطبقناها بطريقة عشوائية، والحالة أن هنالك فوارق جوهرية بين العصر الوسيط الاروبى والعصر الوسيط الاسلامى .

فالقرون الوسطى بالنسبة لتاريخ أوربا تمثل حقا عهدا من الظلمات والانحطاط فى مختلف أشكاله . فالاروبى على حـــق حينما يزدرى بذلك العصر ، الا أنه يتعسف حينما تدفعه الانانية الى تعميم حكمه على العالم أجمع ، وبالاخص العالم الاسلامى ونأتى نحن فنقتدى بذلك الاروبى بحكم تلمذة لا تخلو من غفلة وبلاهة ، فنمسك احسن ما عندنا فى تاريخنا بعينين مغمضتين ونردد : ((ان هذا يمثل العصر الوسيط)) ، وكاننا نتحـــدث عن شىء يمثل تدهور الانسانية وانحطاطها ، شاملين فى حكمنا هذا رجالا من نوع الجاحظ والفارابى والبحترى والمتنبى وابن رشد والغزالى وابن خلدون والتوحيدى الخ... الذين لا نجد لهم مثيلا فى اروبا المعاصرة .

فالعصر الوسيط الاسلامى ، على خلاف ما نشاهد فـــى اروبا ، يمثل عهد قوة ومجد وازدهار وتقدم فى ميادين حضارية متعددة . وهاته حقيقة تكاد تكون بديهية فى اوساط العلمـــاء

المختصين بدراسة هاته المواضيع .ومنذ بضع سنوات القى المستشرق ((روجى انالديز)) المتخصص فى تاريخ الفكر الاسلامى محاضرة بمدينة المحمدية فى نطاق المؤتمر الذى عقدته هنالك جمعية ((سواحل متوسطية)) ، فى هذا الموضوع بالذات. فبين بالحجج التى لا تترك مجالا للشك كيف ان التراث العربى الاسلامى يعانى من التجاهل والاحكام الجائرة ، وانه فى حاجة ملحة الى مراجعة فى التقييم . والجدير بالذكر ان المؤتمر كله كان عبارة عن التذكير بقيمة ذلك التراث ، والدعوة الى الاشادة به . ولم يكن ذلك بدافع من المجاملة ، وانما انطلاقا من حقائق علميـة (6) .

حقا ان العصور المتاخرة كانت تمثل عهد انحطاط بالنسبة للعالم الاسلامى ، وهى التى قادتنا الى الازمات والمصائب التى عشناها فى تاريخنا المعصر . ولكن هل يصح لنا ان نخلط بين العصور والاجيال ، فنطلق حكما صارما وقاسيا على الكل، دون تمييز ولا تمحيص ؟

اذا استطعنا ان نتحرر من تلك الفكرة المسبقة ونتصل بموضوعنا من منظور سليم ، يبقى علينا ان نبحث عن مقاييس التقييم . وفى خطوة اولى ، يجب ان نتجه الى البحث عن معانى الفن ومقاصده التعبيرية فنكتشف مع ابن خلدون ، مثلا، كيف ان المدينة كانت تستجيب لحاجات بشرية واجتماعية معينة، وكيف ان تاسيسها واختيار موقعها يخضع لشروط واحتياطات، وكيف ان التطور يدفع الى التانق فى المعيشة وازدهار الفن (7)

وفى خطوة ثانية نجد مقياسا آخر فى التاريخ المقارن ، فنوازن بين المدينة الاسلامية والمدينة الاوروبية فى العصر الوسيط ، فيظهر لنا فى الحين تفوق الاولى على الثانية . وفى هذا الصدد ، لا نجد خيرا من شهادة كلود كاهن الذى يقول :

« من المحقق ايضا أنه بازاء أروبا التى كانت تقل بها المدن التى تتجاوز عشرة آلاف نسمة ، كان العالم الاسلامى يتوفر على عدد كبير من المدن الحقيقية ، وعلى عدد من الحواضر العملاقة. فقد اعطيت بعض الأرقام عن بغداد ليس من الحكمة تقديمها ، لانعدام البرهان الذى يدعمها . ولكن من الممكن ان نؤكد انه كان هنالك ، كما سيكون فى القاهرة ، تجمع بشرى كبير يتجاوز حاجة النشاط الاقتصادى فى المدينة ويبلغ ، فى احسن الاحوال، عدة مئات من الالاف ، ولا يمكن ان نقارن بها الا القسطنطينية التى توجد كذلك بالشرق ولربما بعض مدن الشرق الاقصى ». (8) .

وفى خطوة ثالثة نضع فى اعتبارنا فلسفة الحياة كما اراد الفن أن يعبر عنها ويحققها فى آن واحد . والمدينة الاسلامية هى أحسن موطن تستجلى فيه تلك الفلسفة لانها ، كما رأينا، صورة متكاملة عن الفن . فنلاحظ انها صممت وبنيت تحت شعار الحديث : « اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا واعمل لاخرتك كانك تموت غدا » بمعنى انها طمحت الى تحقيق هدف كبير وصعب الا وهو ضمان نوع من التوازن بين الحياة الروحية والحياة المادية . لقد خصص مركز المدينة للمسجد الجامع وللاسواق التى تحاذ به أو تلتف به ، وما زالت هاته الصورة ماثلة الى يومنا هذا فى عدد من المدن الاسلامية المعروفة نشاهدها فى المدينتين المقدستين مكة والمدينة كما نشاهدها فى دمشق وفاس ومراكش والرباط وتونس وغيرها . هنا صراع من أجل الحياة ، من اجل الربح وهناك فى بقعة مجاورة تطلع للاخرة ومحاولة لتطهير الروح وتحريرها . وفى كل يوم يمر المسلم بين التجربتين ولا يجد سبيلا لتحقيق شخصيته الا فى نوع من التوازن او التركيب الذى يجده مجسما فى حياته اليومية بالمدينة التى يعيش بها . (9) .

فالمدينة الاسلامية تتشخص ، بابلغ تعبير وأقوى تصوير تلك الجدلية التى جعل منها ((هيجل)) جوهر الواقع والفكر فى آن واحد . فهى ليست من تلك المدن العملاقة التى تطغى بفخامتها المادية فتوحى للانسان بالكبرياء والجبروت ، من جهة ، وتضعه فى قفص الاستلاب وسط نسق من الاوهام والمثل الخيالية والطوبيات ، من جهة اخرى . فالفن النابع منها يسجل التناقض وينبه اليه ، ويحاول فى نفس الوقت أن يتجاوزه نحو موقف فكرى وأخلاقى تركيبى يعطى للحياة الفردية والجماعية معنى واتجاها .

لقد غابت هذه المعانى والرموز عن المسلمين بالطبع ، اثناء عهد الانحطاط وفقد الفن رنينه وقوته التعبيرية ، وعدم من يتعهده ويحافظ عليه ومن يتحدث عنه ويبرز قيمته ، فظل ضائعا ، نسيا منسيا ، يتوالى عليه التخريب ويتراكم الغبار ، وسط اهمال الجميع وغفلتهم الى ان جاء الاجانب وقالوا لنا ان لديكم كنوزا فنية رفيعة القيمة وصاروا يكتشفونها لنا فى ابحاثهم ودراساتهم ، فبدأنا نقتنع ونتعجب من غيبتنا الطويلة وتقاعسنا الاثيم .

لكن دورنا نحن لا ينحصر فى تسجيل ما اكتشفه الاجانب، بل فى أخذ الموضوع برمته واعادة النظر فيه ، لا من باب القيام بالواجب فحسب ، لكن من باب خدمة العلم والحقيقة ، والاضطلاع بمسؤولية ترجع الينا ، أولا وأخيرا . فمهما بذل الاجانب من مجهودات باخلاص وحسن نية ، فستغيب عنهم أشياء وأشياء .

ثم ان أهم عبرة نحتفظ منها ونحن نكتشف هذا الفن هو ان أجدادنا وجد لديهم الطموح القوى لبناء حضارة جديدة لها طرافتها وابداعها . فحبذا لو وجد عندنا نحن أيضا ، مثل

هذا الطموح وهاته الثقة فى النفس فلا نكـون طفيليـين ولا ببغاوات ، بل نجول جولة جديدة فى عالمنا المعاصـر بعطـاء صادق فى ابداعه غنى فى مصادره ومو'رده ، صادر عن روح متطلعة الى المستقبل والتقدم .

هـــــوامـــش :

(1) ــ تاريخ هاته التطورات يختلف حسب الاقطار الاسلامية .

2 — Mohamed Saïd El Attar : Le Sous-développement économique et Social du Yémen.

(3) ــ أنظر فى هذا الصدد :

— A. Laroui : L'Idéologie Arabe contemporaine

ــ ع. العروى : العرب والفكر التاريخى .

ــ زكى نجيـب محمـود : تجديد الفكر العربى .

ــ محمـــود أمين العالم : طريق الاصالة والمعصرية (مجلة « قضايا عربية » ع 2 سنة 1974)

(4) ــ هذا موضوع عالجناه فى بحث سينشر قريبا بعنوان « جدلية الماضى والمستقبـل »

(5) ــ الامثلة كثيرة عن هؤلاء الاجانب الذين أعجبهم نمط الحياة فى البلاد الاسلامية فاثروا السكنى بها . وهم جديرون بدراسة واسعة نظـرا لكثرتهم وتنوع شخصياتهم .

6 — Etudes philosophiques et littéraires — Revue de la Société de philosophie du Maroc — Numéro Spécial.

(7) ــ ابن خلدون : المقدمة : الى جانب الفصل المعنون « فيما يجب مراعاة فى أوضـاع المدن » هناك فقرات أخرى متفرقة تهم موضوعنا .

(8) ــ أنظــر :

C. Cahen : L'Islam des Origines... p 115

(9) ــ هنا كلام كثير للمفكر الفرنسي جاك بيرك في عدد من كتبه مثل :

— Les arabes d'hier à demain

— Le Maghreb entre deux guerres

— L'Orient second

دراسة فى الرواية المغربية

«المغتربون» (1) والابعاد الاولية لمفهوم الغربة

الحلو احمد

حجم ماجريات الاحداث فى المجتمع التقليدى المتخلف :

يحدد القاص موقع روايته منذ البداية فيقول (2) : « على مقربة من جبل « الكست » الممتد شرقا الى الشمال الغربى، وعلى هضاب سفحه تقع « أنامر » القرية ذات البناءات البربرية الحمراء » على أن تحركات الابطال لا تقف عند حدود القرية ، وانما يمكن اعتبار القرية منطلقا للحركة . وهكذا تتسع الارضية التى تجرى عليها الاحداث لتشمل مناطق نائية نسبيا كالدار البيضاء التى كانت مرتع شباب احد ابطال الرواية وهو عبد المالك .

تبدأ أحداث الرواية منذ ابريل 1959 . على ان هذه الفترة التى تجرى فيها الاحداث تعتبر حاسمة بالنسبة لتاريخ المغرب

الحديث . فالى أى حد كانت وقائع الرواية انعكاسا لهذه الفترة التاريخية الدقيقة والحاسمة ؟

تبدأ الرواية بوصول احد أبناء القبيلة عبد المالك . تقف سيرة فى حوض القرية لتستقبل هذا الوافد الجديد الذى وصل مكدود الذهن بعد رحلة شاقة من الدار البيضاء الى تامر، حيث كان طول المسافة يغرقه فى بحر لجى من الافكار فيها ما يتعلق بماضيه عندما كان تلميذا يأوى الى شقة بشارع فوكو بالبيضاء ، وفيها يتناول آفاق مستقبله بعد ان أتم الشهادة الثانوية وأصبح مؤهلا للجامعة وبعد ان استنزف والده من فرط ما كان يبعث به اليه شهريا (4 الاف ريال) تطرح به بعد ذلك هواجس شتى تتعلق بتوقعات حول أسرته ووضعها الاقتصادى ، فقد غاب عن أهله ما لا يقل عن عشر سنوات، ولابد أن تكون هذه المدة كافية ليشهد بعد أوبته فى أسرته تحولات كثيرة .

يصل منزل أهله ليجد والدته ماماس وأخته زينة ماعدتين وليعرف أن أباه قد تراجع عن مواقعه التجارية وأصبح مجرد أجير فى احدى ضيعات تافروات . بينما تستعد أخته لتصبح خادمة لدى احدى الاسر بالدار البيضاء .

ينخرط عبد المالك مع شباب القرية انخراطا متحفظا، ويبقى احساس بغربة ما يلازمه ، ومع ذلك يشاركهم ممارساتهم يركبه حب عاصف لاحدى فتيات القرية وهى تعزة التى ستصبح بمثابة المحور الذى تدور حوله الاحداث فى الاخير . يلتقى بشاب يعرفه انه قاسم بن عدى احد أبناء الاثرياء . ويتعرف على احد شعراء القرية الذين يكتبون بالفرنسية وهو بدر بينما يمسى « عضوا عاملا » فى دا رسيدى الفاهم التى كانت ملتقى شباب القرية ، وحلبة ارغاء وازباد الفرسان حيث تختلط المغامرة

بالبحر والخيل والبطولة فى أحلام اليقظة لتبدأ (الرحلات وألف ليلة وليلة والسندباد البحرى) . ومن خلال هذا الجو تتبين شخصيات اخرى من اهمها بورون الخادم وعم بوهو وبا الحبيب

هذه هى الحلقة التى كان يقتحمها وهو مقيم فى قريته . من اصدقائه فى الاحراش ينطلق الى تادينارت بحثا عن تعزة الى دار سيدى الفاهم لقضاء ليلة ساهرة حالمة . وخلال علاقاته يرتسم فى ذهنه واقع اسرته المزرى ، وواقع حبه لتعـزة . وبقدر ما كان يشتد حبه لها ، كان قاسم بن عدى يمارس دور العناد والمنافسة غير أن تعزة كانت تملك وعيا ــ كما اراده لها مؤلف الرواية ــ طبقيا ولذلك رفضت قاسم بن عدى عندما تقدم لخطبتها رغم احواله وامواله وامتعته ، ورفضت هداياه، بينما قبلت الزواج من عبد المالك مع أن مستقبله ما يزال فى حكم الغيب . وهكذا يقدم لها خاتما كعربون على المحبـة ، مما يشعل نار الحقد فى قلب قاسم ابن عدى ، فينصرف يحيـك المؤامرات من اجل خلق ظروف سيئة بين عبد المالك وتعزه . وفعلا فقد اوعز الى بورون بسرقة الخاتم من تعزة مقابل أجر معين والسكوت عن جرائمه وعدم اخبار الشرطة بوجوده . وتمت له المؤامرة ولكن بورون يلقى عليه القبض بعد ذلك . وتتأكد علاقة قاسم بن عدى بالواقعة فيعتقل من طرف الدركيين ويعود عبد المالك الى تعزة مؤملا أن يدرس ثلاث سنوات لكى يصبح محاميا فيما بعد . غير أن ظروفه العائلية القاسيـة تستعجله فى شخص اخته زينة عندما عاد (السى حسن) الى الظهور من جديد على مسرح الاحداث فى محاولة لاخذ زينـة خادمة عنده فى المنزل مقابل مقدم مالى يساعد عبد المالك على الدراسة . ان ظروف اخته فتحت عينيه على واقع أسرتـه المزرى ، فوالده اصبح مهددا بالطرد من الضيعة التى يعمل

اجيرا واخته تحت تاثير الحاجة تكاد تضيع مثلما ضاع فى المدينة نهبا للغربة ، ثم هناك حبيبته التى تحاك لها فى الخفاء الدسائس . يقرر انطلاقا من قناعاته الذاتية الشخصية ، والموضوعية الاسروية رفض المقدم المالى والعزوف عن متابعة الدراسة والاحتفاظ باخته فى المنزل مقابل ان يرحل الى المدينة وان يعمل فى مكتب للطيران موظفا بسيطا ليكسب عيشه وينقذ ما يمكن انقاذه ليقيم أود اسرته . لقد قرر اخيرا أن يعود الى القرية قبل أن تورق الاشجار مرة اخرى ليتزوج بعد ذلك نعزة .

هذه هى الاحداث التى تعتبر ارضية تموضع مصائر شخوص الرواية وهى أحداث كما يلاحظ تتراوح بين مستويات الحب فى دلالاته التقليدية والغربة فى هناها الاولى ، والامتياز الدافق فى المجتمع القروى ، وهى احداث كما يلاحظ ايضا تقليدية معتادة الا انها غالبا تشكل ملامح المجتمع التقليدى اجتماعيا واقتصاديا .

الطبقة التركيبية للمجتمع القروى من خلال ملامح الابطال فى رواية « المغتربون »

من خلال استعراض ابطال الرواية تتضح الخريطة الطبقية للمجتمع القروى فى مغرب بداية الاستقلال . فهناك فى الرواية نموذج البورجوازى ثرى الصفقات والحروب (قاسم بن عدى) وهناك نقيضه الطبقى (والد عبد المالك) نموذجا وغيره هؤلاء اجراء فى ضيعات غيرهم ، بعد أن اغتصبت منهم اراضيهم واضطروا بعد أن حوصروا منهجيا عن طريق الاقطاع المحلى الى بيعها . وهناك نموذج البورجوازى الصغير الذى يحلم ويفكر ويقيم فى مكره عالما من القيم والافكار (عبد المالك وبا الحبيب) . وهناك حثالة البروليتاريا من العاطلين المقنعين (بورون الخادم وعم بوهو نموذجا) ان المجتمع الذى يرصده

القاص رغم تخلفه الحضارى ورغم ملامحه البدوية الصرفه . ليس مجتمعا متوفرا على شرائط المجتمع الاقطاعى بالضرورة، فالظاهر ان القاص انما يريد رصد مجتمع متمدن نسبيا من خلال الاهتمامات التى تستقطب الابطال ، ولكن فى ديكور مروى وفى ملابس بدوية وعادات تقليدية . فكل ابطال القاص تبدو اواصرهم بالمدينة أوثق من القرية . واكثر من ذلك فان القاص لا يتوق الى تقديم مجتمع فلاحي . حقا هناك اهتمام جزئى ببعض القضايا التى تشكل ملامح مجتمع فلاحى ، ولكن هذا الاهتمام لا يرقى الى مستوى طرح قضايا مجتمع فلاحى فى أزماته وهواجسه . ان قاسم بن عدى مثلا يلخص ممارسة البورجوازية الهجينة اكثر من ان يسعفنا على تصور الاقطاع فى مجتمع البادية المتخلف .

تبقى المرأة رغم تعدد ممارستها غير خارجة عن نطاق المكابرة والمعاناة . فهى فى الرواية مهما تعددت انتماءاتها الطبقية فانها تبقى واقعة فى جميع الحالات تحت تأثير موقف عام من المرأة لدى الرجل ، وهو موقف الازدراء والتآمر فى الغالب

يرسم القاص ملامح قاسم بن عدى ليبين فساد الطبقة التى ينتمى اليها وهجنتها فيقول (3) : (وقاسم بن عدى أنهى تعليمه الثانوى ، فحدث بينه وبين هذا الشىء المسمى فى عرف المدرسين ((ثقافة)) شبه قطيعة : انغمس فى ادارة مستودع للسيارات القديمة بمعية والده بالدار البيضاء . وركب ظهر طموح عظيم ولم تكد تمضى بضعة اعوام حتى صار من كبار الاغنياء ، وقد اثرى ثراء فاحشا ، ولا حديث لاهل القرية الا عن مشاريعه الضخمة وارباحه القيمة ، والعمارات التى صارت من ضمن املاكه . وقد عرفه عبد المالك قبل صفر اليدين ، لا حول له ولا قوة ... ودارت دائرة الزمن ، ولمع

نجم آل بن عدى فى بلدة آنامر . كما لمعت نجوم وشمـوس أخرى عديدة)) .

ان القاص يريد من خلال هذه السطور أن يؤكد واقعا متعفنا بالطبقة البرجوازية فى ضمن علاقاتها بالبنيات الاجتماعية والاقتصادية وهو ان هذه الطبقة قد اثرت على حساب باقى الطبقات وزادت ثراء حيث استفادت كثيرا، فتكون لديها على حافة ممارستها الاقتصادية والاجتماعية الانتهازية الهجينـة وعـى تبريرى لمواقعها الطبقية ملخصة باختصار ان المال مفتاح كل شـىء .

يتحدد نقيض هذه الطبقة فى مسار الرواية عبر والد عبد المالك الذى رهن كل أملاكه وأصبح أجيرا فى احدى الضيعات يعانى من الانهيار والتهديد حتى أن عجزه جعله يقبل ان تصبح ابنته خادمة . وهكذا فان هذا القبيل الهندسى بين نموذجين متناقضين اذ يطرحه القاص فانما يريد بذلك أن يؤكد سلوك كل من الطبقتين . فاذا كانت البورجوازية الثرية ترى الانتهازية سبيلا للكسب غير المشروع مهما تكن وسائله ـ يقول هاسم بن عدى (4) : ((ولعل اقصر طريق لحصول على المال التجارة ، وانى لاتسف على كثير من الاوقات مما ضيعته فى تلقى المعادلات الرياضية ذات المجاهيل ، وفى حياتى العملية لم استفد الا من ((الضرب)) فهو يختصر الطريق نحو الارباح)) ـ فان الطبقة العاملة المسحوقة لا تكسب الا من الكد وعرق الجبين .

يقدم الروائى نموذجين من البورجوازية الصغرى (عبد المالك) و (ابا الحبيب) اولهما أسير القيم والمثل الاخلاقية، وثانيهما ضحية الانهيار الطبقى والمغامرة الخاطئة لخلق بديل هش لوضعه الاقتصادى المتردى . كان ((ابا الحبيب)) موظفا بالبريد ... وحدث ان استولـى على مبلغ من الامـوال

العمومية ، فحوكم عليه ((محاكمة تاديبية)) و ((حوسب حسابا عسيرا)) ثم طرد نهائيا ليتحول الى رجل يعاقر الكأس ان القاص عندما يجر هذا النموذج الى المحاكمة التاديبية المسيرة الحسابات التى تنتهى به الى الطرد النهائى انما يريد فضح واقع محدد ، هو واقع الفساد الذى يقضى بمحاكمة صغار الموظفين المتعبين الذين تضطرهم ظروفهم الاقتصادية الى السرقة بينما لا يحاكم ((علية القوم)) . وهكذا يحاول القاص من جانب آخر أن يرسم أهم ملامح البورجوازية الصغرى وهو ملمح التسلق ذو طبيعة خائبة لا ينتهى الى الاثراء بل الى السجن فالتسكع والعربدة المستديمة غالبا .

على أن العاطلين الذين يسيرون فى ركاب قاسم بن عدى اذا كنت قد اصطلحت على اعتبارهم حثالة البروليتاريا فان هذه التسمية ليست مضبوطة تماما . ولكنها مع ذلك تبدو قريبة الى منطق اوضاعهم الطبقية لانهم يعيشون بطالة مقنعة . الا أن تبعيتهم لقاسم بن عدى تذكر بالمجتمع الاقطاعى غالبا . فاذا كان قاسم بن عدى قد اثرى فى مجتمع صناعى فان ممارساته واستعباده للاخرين لا يخرج عن سلوكات رجل رجل الاقطاع بينما يبدو تابعوه فى دار سيدى الفاهم اقرب الى العبيد الاقنان .

ان الاحسايني وهو يحدد آفاق تصوره لعمله الروائى أراد أن يحقق المقابلة بين صنفين من النماذج البشرية فى القرية ، صنف يعيش للحرية والكرامة وصنف يصادر الحرية ويهدر الكرامة ، وهكذا نستشف وبسهولة أن الكاتب يركز بعض الحقد على قاسم بن عدى المجسد لوضع فاسد باكمله ويدين واقعا مزريا فى شخصه . وهكذا يدخل نفسه فى حلبة الصراع .

من هذه الوجهة حاول القاص تحليل ملامح المجتمع القروى البربرى غير أن المستوى العلائقى الذى اقامه بين الاشخاص كان تقليديا جدا . ذلك لان الرابطة التى كانت محور القصة هى الحب الذى ربط قاسم بن عدى بنقيضه الطبقى. قاسم بن عدى محمول بانتهازيته يقابله عبد المالك ابن الاجير، يتنافسان على تعزة كل من جانبه . ان هذه العلائق التى يقيمها القاص لا تثير الصراع المحتوم المطلوب . فلو انه اقام علاقة أساسها صراع اقتصادى لاحقد أكثر ولامكن أن يحقد الخلاف، ولامكن أيضا أن تسير ضمن نسق فكرى أعمق وأوضح ، لتتضح الصراعات التى يشير اليها الكاتب فى تقديمه للرواية. ولكانت للرواية الخصوصيات التى تميزها عن باقى القصص على أن موضوع الحب لا يخمد حدة الصراع بالضرورة . فرواية الارض لعبد الرحمان الشرقاوى رغم الحب الذى كان اداة توسلت بها لافراز الصراع استطاعت أن تبلور حدة الصراع بين الاقطاع وصغار الفلاحين .

المرأة فى ((المغتربون)) مبعث الصراع ، فتعزة تبدو مثال المرأة الواعية القادرة على الاختيار ، بينما تبدو زينة مثلا للمرأة المغلوبة على امرها . بالنسبة للكاتب اداة لابراز الصراع الطبقى ، فهو من خلال زينة يضع عبد المالك (نموذج الانسحاق) وجها لوجه أمام نقيضه الطبقى الذى أراد أن يستعبد أخته (القسى حسن) أو الذى أراد أن يغتصب خطيبته (قاسم بن عدى) وهكذا يبدو واضحا أن القاص يمرر كثيرا من الوقائع عن طريق عبد المالك الباحث التائه عن خلاص له ولاخته وحبيبته من الضياع والاستبداد والاغتصاب . والذى يمكن أن نستنتجه هو أن عبد المالك كان نموذجا للفشل والاحتراف رغم العزم والارادة ، لانه رغم طموحاته فانه يرتطم بواقع ماسوى .

فكأنه خلق لواقع أكبر حجما مما يحتمل وهكذا فان عبد المالك يلخص مأساة جيل بأكمله ينتمى الى الشرائح الدنيا ، فتح عينيه فوجد نفسه فى وسط منهار اقتصاديا نتيجة اغتصاب تعرض له عائل الاسرة فى ماله او فى أرضه او فى صناعته التى تعرضت للبوار ، اذ كان من الفلاحين الصغار أو من التجار الصغار او الصناع التقليديين وصغار الحرفيين . وحاول هذا الجيل ان ينقذ ما يمكن انقاذه عقب تخرجه من الجامعات ومدارس تقنية او تربوية ليضيع فى زحام الوظائف الدنيا ، فوجد نفسه قد جرفه التيار وكرر مأساة جيل سلفه بخيبات متكررة وفشل مستديم ووعى شقى هو وعى أحسه جيل الاستقلال بمرارة وبالضرورة .

والحقيقة الاكيدة أن عبد المالك يملك عناصر نفسية متعددة تؤهله جميعا ليلخص مأساة جيله ، فظروفه السيئة تجعله يعيش الاغتراب والقهر ، فمنذ خلق وهو يعيش بعيدا عن أهله بالبيضاء . ولما عاد الى قريته وجد نفسه أيضا تتضاعف مشاعر الغربة فى نفسه . ان وضع عبد المالك يذكر ببطل « فى الطفولة » لعبد المجيد بنجلون الذى كان يستشعر الغربة فى مانشيستر بلاد الصناعة ومراكش بلاد التخلف . يتكرر نفس الاحساس لدى عبد المالك فى بيئة واحدة ولكنها متناقضة وفى مساحة أضيق يحس الغربة فى الدار البيضاء (مجتمع صناعى) وفى آنامر (مجتمع قروى تقليدى متخلف) . يقرر عبد المالك وضعه النفسى فيقول : « مازال كسمكة ترتطم فى جوانب الاحواض ، لا قرار لها بعد ، ولا هى تعلم فى أيهما تنغمس ؟ » ان نوع الاغتراب الذى يستشعره البطل صحى ومتميز بشدة الحساسية والمعاناة والتنامى يبدأ لدى البطل ضمن ايقاع احادى الجانب عندما ينصرف الى تحليل ظروفه الخاصة كما مر بنا ليؤكد انتقالا من هذه الاحادية الضيقة التى ترصد حناياه

النفسية الى مستوى اعمق . حيث ينصرف عن الاحساس بالغربة والاغتراب وبانه نبات غريب فى خريطة الحياة كلها الى ادراك ابعاد الازمة المتولدة عن طريق ظروفه الاجتماعية ليعيد بذلك النتائج الى اسبابها .

ان عبد المالك لا يشخص بمعرفة ابعاد الازمة ، الى جانبه « تعزة » البعيدة عن اسرتها والتى تشغلها شواغل الانفصام عن هذا الوسط . حيث يتكون لديها وعى منفتح تستطيع به تصور المستقبل لو انها تزوجت قاسم بن عدى . ومن هنا تؤثر الزواج من عبد المالك . وتفضل خاتما بسيطه على سيارة مرسيديس من قاسم بن عدى . ان هذا الوعى الناشىء لدى تعزة لا يشخص واقع المراة فى بادية المغرب بقدر ما يمكن اعتباره ضربا من التنبؤ المستقبلى لما ينبغى ان تكون عليه المراة فى ما يتصوره القاص ، اما الواقع فيختلف عن حدود تصور القاص . اذ ان المراة ما تزال غالبا غير مخيرة بين ان تتزوج وان تعزف عن الزواج . ان ابعاد الاغتراب متعددة يتقاسمها الابطال ولكل منهم نصيبه . فهناك بورون ، وهناك ابا الحبيب وهناك عم بوهو ، كل هؤلاء يعيشون فى وسط غير وسطهم . الا ان عبد المالك خاصة يتعمق لديه الاحساس بالغربة اكثر منهم . ومن هنا نستطيع ان نتبين اسباب تسمية الرواية ب « المغتربون » . انها تسمية تتفق مع الاحوال النفسية لابطال لها ومن هنا نستطيع ان نحكم على ان النماذج التى اخضعها القاص للدراسة فى روايته قد احسن وضعها ودراستها من الناحية النفسية .

اذا كانت الغربة تستقطب ابطال الرواية وتوحد نفسياتهم فان القرية التى يصفها القاص تتحول هى نفسها الى رمز للخصوبة والنماء ، وانما الى بؤرة للعربدة والسكر ، او وكر للاستغلال والاستعباد ، حيث يلوذ بها الفارون من وجه العدالة

أو الفاشلون او المخرفون ، أو الضائعون المضطهدون . وهكذا تصبح القرية مشخصا من أهم مشخصات الازمة . فاذا كانت هى الارضية الاساسية التى انطلق منها الابطال . فانها بالنسبة للقاص كانت بمثابة المرصد الذى يرصد منه تحركات أبطاله . وهكذا فانه اذ يرصد حركاتهم يعود بهم الى أبعد الاماكن التى يتحركون فيها ، وغالبا ما تكون الدار البيضاء مقابلا موضوعيا لاتآمـــر . ان القاص يطل على مشكل هجرة اهل البوادى الى المدن ويحلل بشكل غير مباشر اسباب ذلك ليبين ان القرية قد افرغت من محتواها مما اضطر اهلها الى الارتحال عنها الـــى المدينة بحثا عن عمل أو صفقات أو تجرة أو دراسة . حقيقة ان ارتحال سكان البوادى الى المدن بشكل جماعى يشكـــل خطرا على التمرية قبل المدينة لانه يهدد الحياة الاقتصاديـــة للبوادى والمدن على السواء ، ولانه يشىء انسان الباديـــة ويجعله يضيع فى زحمة الاكتظاظ فيفقد ملامحه وخصوصياته . ونحن انظاهر ان الكاتب استطاع أن يبرز ملامح القرية المتميزة ويكفى أن نرجع الى وصفه للعآمة (الشباب) وهو يشارك فى الاعراس أو يتفيأ بظل الاشجار أو يستحم بمياه الوادى ، أو وهو يرصد حركة الفتيات لنتأكد من ذلك . الا ان هذا التميز وهذه الخصوصية كانت تنمحى فى مناطق أخرى قريبة من المدن حيث أدت الهجره المتتابعة من البداوى الى المدن الى انمحاء معنى البادية بالتدريج . ولكنه مع ذلك فان القاص وهو يرصد مجتمع البادية يترجم على نحو ما واقع المغرب ككل تجوزا .

ان القاص عندما يعرى الواقع من خلال البورجوازية الجنينية ورثيـــة التفكير الاقطاعى ، ومن خلال البادية المغربية فى فراغ مضمونها يتحول عمله الروائى الى انجاز يواكـــب الواقع التاريخى من غير مباشرة ولا تقرير .

1 — من أهم العناصر التى يتميز بها أسلوب القــاص المقارنة . فهو غالبا يشرح حالا بحال ، ويقارن وضعا بوضع، على أن المقارنة تستهدف أغراضا كثيرة من أهمها الانتقاد يقول متحدثا عن شباب القرية (5) « جال ببصره فى انحاء تادنيارت، الشبان يحتكرون اللقاءات والمواعيد ، كما يحتكر أباؤهم المواد الغذائية فى البيضاء » ويقول فى معرض مقارنه وضع عبد المالك النفسى بوضع أبا الحبيب : (6) يهرب من واقعه الى الكاس ثم الى أغماض الجفون ، كما يهرب هو أيضا (يقصد نفسه) من واقعه من فقر وكلاه وحب الفتاة صاحبة الحذاء المفقوده » أن المقارنة تؤكد أتساع الافق التأملى لدى القاص ، وهذا جزء من ايجابياته فى الرواية .

2 — يعمد القاص الى الوصف النفسى لابطاله والوصف لجمل ما تقع عليه عيون الابطال من مظاهر الجمال فى القرية ويبلغ حداً من التوفيق جيداً ، عند رصده للبناء البربــرى فى هندسته المعمارية القروية . وعند رصد أحد شخوصه لاحدى اللوحات التىتختلط فيها الاسطورة بالتاريخ ص 61 .

3 — تبدو لغة القاص متماسكة وقوية غالبا وتتراوح بين مستويات تعبيرية متعددة الدلالات فقد تبدو أحيانا لغة ايحــاد خصبة . يقول مثلا (7) : « الاشجار لم تورق هذا العام فى الجبل ... وما لا تسرقه القوارض فى البرارى يفسده الخنزير البرى فى أرضنا الدنية » . وقد تبدو أحيانا لغة توقع وتصور جميل للمستقبل ص 138.

4 — يستغرق الوصف من القاص اغلب اجزاء روايته . والحقيقة أن هذا الوصف مبرر تماما . لان القاص يريد أن

يطلعنا على وسط قلما اطلعنا عليه من خلال كتابات باقى كتاب القصة فى المغرب . وهذا ايضا جانب من جوانب التوفيق فى منجزات الاديب الفنيــة .

5 ـ يخلط الكاتب بين طريقتين من طرق رصد المرئيات والذكريات يتشكلان معا فى عنصر وَحد هو عنصر التداخل بين طريقة الاسترجاع وبين كتابة التقرير (راجع الصفحات الاولى من القصــة) .

6 ـ يلجأ القاص الى التحليل النفسى ليعمق اطلاعنا على نفسيات الابطال .

واخيرا فان الاحساينى وهو يكتب روايته ينتهى الــى الإنتصار للكادحين رغم خيباتهم المتوالية ولكن دون غوغائية . ان اختيار عبد المالك الحاسم فى نهاية القصة لمل بسيط بدل المحاماة انتصار للانسان فى نفسه ، انتصار للكلام ، والتزام وفى طبقته ، وحينما ينتصر القاص للكادحين ولطبقات الدنيا فانه يتبين واقع المغرب خلال الفترة التاريخية التى كتب فيها عمله المادى . هذه الفترة 1959 التى انفصل فيها وبشكل علنى الزواج الكاثوليكى بين الطبقات المتضاربة المصالح والمنصهرة فى حزب الاستقلال ، حيث انسلخت شرائح البورجوازيـــة الصغيرة وأعلنت طلاقها النهائى . لتفضح مؤامرة الصمــت والمهادنة التى ادت الى نكسات اعتبرت تراجعا عن الخــط الوطنى الصحيح ومصالحة للتبعية والاستعمار والاقطاع .

الا أن الحساينى لا ينظر الى الفترات الحاسمة فــى التاريخ ضمن دائرة وعيه الروائى . والا فاين انعكاسات هذه الفترة الدقيقة على مستوى البنيات المجتمعية والاقتصادية ؟ ان الحساينى عندما مال بوجهه عن آفات الفترة ونظر الــى التاريخ على انه مسار مطرد لم يستطع استبصار انعكاس هذه

الفترة على المغرب ، ولم يخصب أدبه رؤية مستقبلية ــ اذا استثنينا «وقفه من تعزة ــ فكان من تناوله للرواية كوقائـــع اغرقت التاريخ فى الديمومة والرتابة . واغرقت الرواية نفسها فى بركة آسنة وهى آنآمر فانتقضت الى الحركية اللازمـــة والتحليل الاكثر عمقا فتبتعد عن الركود والايقاع الرتيب الذى تميزت به القرية فى أدبه .

الدار البيضاء اكتوبر 1977
بقلم الحلو احمــد

هـــــوامـــــش :

(1) ــ رواية من تأليف محمد الاحسايني ــ مطبعة دار النشر المغربية ــ مبراير 1974 ــ تقع فى 159 ص ــ من القطع المتوسط فى ورق صقيل وفى طبع جميل ــ مع كلمـــة فى صفحتين للمؤلف .

(2) ــ المغتــربــون ص 7

(3) ــ نفس المصدر الســـابق ص 29

(4) ــ المصــدر الســـابق ص 63 .

(5) ــ نفس المصـــدر ص 69 .

(6) ــ نفس المصدر ص 47

أحمـــد سعـــود

من منطلق الرد على الاحتفالية في انتقاداتها للبرشتية

لقد عرف المسرح الجماهيرى 1 ، قبل هزيمة 1967 ، عدة اتجاهات مسرحية غربية افرزها الواقع الطبقـــى و لمستـــوى الحضارى للغرب (المركز) ، الا ان تعامل المسرح الجماهيرى مع الاتجاهات تلك ، كان يفتقر الى رؤية نقدية والى ضوابـــط ايديولوجية معينة ، تحدد نمطية التعامل الواعي مع تلك الاتجاهات الشيء الذى أغرقه فى الطروح الترانسندنتالية ـــــ عن واقع الشعب ـ ويمكن استثناء مرحلة مقاومة الاستعمار حيث لعب المسرح وقتذاك دورا هاما فى مستوى ما كانت تمليه الاطروحات السلفية والتى كانت بمثابة الاساس الايديولوجى لتلك المرحلة.

باختصار ، كانت هيمنة مكشوفة لموضوعات واشكاليـــات مستوردة عن المتربول . وقد ساهمت فعلا هزيمة 67 ـ الانعطافة التاريخية ـــ نقل الوعى من لحظته الايديولوجية المغالطة الى لحظته الايديولوجية الصحيحة . حيث أصبح يطرح ـ (على

سبيل المثال لا الحصر ــ على الواجهة الثقافية عامة والمسرح خاصة امكانية الاستفادة من المنهج البريشتى واستمراريتــه (التسجيلية / فايس) بعد تطويعه لخصــوصيــة الواقــع العربى) ــ كشكل مرشح لان يلعب دورا طلائعيا فى تشكيل الوعى وبالتالى تشكيل التاريخ الذى يصبح فيه الانسان/الكادح، فاعلا فيه لا موضوعا له •

الا أن المشكلة الاساسية والتى هى المحور المركزى لهذا الموضوع هو محاولة المسرح (الاحتفالى) التشكيك والتقليل من اهمية المنهج البرشتى ومردوديته الايجابية بعد ان دخل المسرح الجماهيرى معه فى حوار نقدى ابداعى هائل (البساسم ، الشعلة، السلام البرنوصى ، الضياء ، ••••)•

على هذا الاساس ، يمكن حصر الانتقادات الموجهة مــن طرف (الاحتفالية) زاد بريشت على الشاكلة التالية /

1 ــ ان عقلانية المسرح البريشتى آتية من كونها خاصية مركزية للشعب الالمانى ومن هنا يمكن « الرد على بريشت الذى يعطل الحواس من أجل أن يجعل التعبير المسرحى شيئا عقليا فقط ، ففى اعتقادى يقول الاخ برشيد : « ان كل وعى يدخل العقل مباشرة وبغير المرور على الحواس يبقى مجرد تفكيــر مجــرد » (2)•

2 ــ ان الوضع الراهن لا يستلزم بالضرورة التحريض، وبالتالى فان تعليمية بريشت هى نفس « تبشيرية •• وسائل الاعمال التضليلية »» اننا عندما نبنى مسرحا تعليميا وتبشيريــا وتحريضيا فاننا بذلك انما نمارس وصاية غير مشروعــة على جمهور غير قاصر » (3)•

هكذا وبفضل جدلية فكرية ، تضرب أهم الركائز الاساسية لأمنهج البريشتي بدعوى أنه « تضليلي » و « وصي » على الجمهور !! .

بعد تلخيص الانتقادات (الاحتفالية) ، تكون لنا بدون محالة ، المشروعية للرد عليها من أجل خلق حوار هادف يتمركز حول أهم اشكاليات المسرح المغربي والتي نحن بصدد مناقشة بعضها ، هذا الحوار الذي ليس هدفه اقصاء الكتاب ، لان الكتاب الملحوظ غيابهم عن الساحة هم كتاب وجدوا ثقافتهم المسرحية تنتمي الى ارشيفات المسرح الكلاسيكي ومن ثم أتى شعورهم بعقم تواجدهم على الساحة الثقافية .

من هذا المنطلق نصل الى تسجيل الملاحظات التالية :
الملاحظة الاولى : أن كون ، هذا الموقف يضفي الطابع العقلاني على الشعب الالماني وحده ، فانه يقوم بترجمة ملموسة تبرر عنصرية المتربول (عن قصد أو بدونه) وبالتالي مشرعنه استغلاله واستنزافه لخيرات المحيط ، بحيث أن ، العقلانية والعلم والحاضرة ، كانت ولا تزال الاسلحة الايديولوجية التي كان يبرر بها المتربول استغلاله للمحيط بدعوى أنه اي المحيط لا عقلاني وضعيف ولا زال في حاجة الى وصاية ... !! .

والصحيح بالقطع ، أن العقلانية ، هي نقطة ارتكاز كل الحركات ذات الاتجاه التقدمي والتحرري ، لكي تكشف بواسطتها المغالطات الواهية للطبقات المهيمنة اقتصاديا وسياسيا . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد أن الثورة البرجوازية ابان قيامها أكدت على اهمية العقل ورفعت لواءه لانه هو السلاح الوحيد لتحطيم وكنس جميع الاجهزة الايديولوجية التي كانت سلاحا بين الاقطاعية ، ولما شعرت هذه البرجوازية بان العقل الذي حملت لواءه سيكون من ضمن

العوامل الاساسية تحفر قبرها ، ارتدت وتراجعت الى الوراء ، بحنين كاذب ، لتنبش قبور تلك الاجهزة واحياءها من جديد وبشكل جديد لكى تقوم بوظيفة القاء الدخان والضباب الايديولوجى على الحقائق الموضوعية ، وهذا ما يلمس بالوضوح فى الافلام كـ ((الاكزيست)) و ((ليكزورسيست)) ....

وعلى مستوى العالم العربى — الاسلامى ، فاننا نجد العقلانية قد التزمت بها عدة فرق اسلامية فى مجال الصراع الايديولوجى ، وهذا ما تؤكده فرقة المعتزلة الممثل الرئيسى للاتجاه البورجوازى المبكر ، التى استندت واعتمدت على العقل حيث حاولت ان تعقلن الدين ليصبح أداة فعالة فى مواجهة الاراء الجبرية والاشكالية .. والتصدى لها بالمرصاد .

ان قائمة الامثلة تتسع لتشمل عددا كبيرا من الامثلة التى تفند ذلك الزعم ، الا أننا نكتفى بهذا القدر ونقول باختصار : ان العقلانية قاسم مشترك بين جميع الناس ، والتركيز على انتمائيته لشعب دون آخر ، انما يدل على عنصرية مريضة بدون محالة .

الملاحظــة الثــانية :

من المؤكد ، ان عقلانية بريشت لاتخرج أساسا عن دائرة الايديولوجيه الماركسية التى تعتمد أساسا على طرح المشكليات طرحا عقلانيا ، لا ايديولوجيا بالمعنى القدسى للكلمة . وعلى هذا الاساس انتقد بريش كل المسارح التى كـانت تخاطب احساس الجمهور وبالضبط ايديولوجيه المسرح الدرامى ، التى كانت تجعل من الجمهور نموذجا مصغرا لكل مـا يقع فـوق الخشبة / اى تاطير الجمهور بالايديولوجيا السـائدة وجعلـه مرددا لشعاراتها القائلة بالاخاء والتصالح الرومانسى لطمس الصراع الطبقى .

وبالتاكيد كذلك ، ان الفصل الذى يقوم به هذا الموقف بين هو حسى وما هو عقلى — أى أن كل اتجاه مسرحى يخاطب الجمهور اما من زاوية الاحساس أو من زاوية العقل — لاتؤيده الحقائق العلمية ، بحيث أن ((الدرجتين الحسيـــة والعقلانيـــة للمعرفة متحدتين ، وتشكل الاحساسات مصدر جميع معارفنا ، ولا يوجد ولا يمكن أن يوجد فى الفكر شىء لم يمر أولا بالحواس فالاحساسات تشكل الارتباط المباشر للوعى بالعالم الخارجى)) (4)

الملاحظـة الثالثـة :

حينما يشدد هذا الموقف فى تنظيراته ، على أن تعليميه بريشت هى نفس تعليمية وسائل الاعلام ، من حيث الوظيفـــه الايديولوجية التضليلية .. !! فان الحقيقة عكس هذا الزعـــم تماما ، فاذا كانت الايديولوجيا السائدة تتسرب انطلاقا ممـــا اصطلح عليه (غرامشى بالبنيان الايديولوجى) أو ما سمـــاه التوسير بالاجهزة الايديولوجية / (المسرح ، السينما ، الراديو ، التليفزيون ..) من اجل خلق وعى ايديولوجى مسطح قاصر عن معرفة الحقائق الموضوعية ، فـــان أيديولوجيـــة المســـرح البريشتى فوظيفتها عكس وظيفـــة أجهـــزة الدولـــة المضـــادة والتضليلية ، بل ان حضوره أتى كضرورة تاريخية لازالة الستار عن مغالطات الايديولوجيا السائدة ، التى يحملها الانسان الكادح ويتحرك ضمن استراتيجتها حيث يتموقف فى النهاية بواسطة وعى لا طبقى .. باختصار فان المسرح البريشتى ((كمســـرح نضالى يركز على أمرين :

1 — تجليات الايديولوجيا النظرية فى السلوك

2 — النتائج العلمية والسياسية لهذه الايديولوجيا ، أى العلاقة الجدلية بين النظرية والممارسة ضمن اطار الايديولوجيا المسيطرة))(5) .

ان الوصول الى تاكيد التشابه بين وظيفة المسرح البريشتى ووظيفة الاجهزة الايديولوجية ، لا يمكن تصور تاكيدها من طرف انسان يلقى على عاتقه مهمة البحث ، لان تاكيداً مثل هذا النوع يدل بما فيه الكفاية انه فى حاجة الى الف باء الماركسية .

الملاحظـــة الرابعـــة :

عندما تصل نتائج تنظيرات هذا الاتجاه ، الى اقصاء مبدأ التحريض ، على أساس أن اشكالية الواقع المغربى لا تستلزم ذلك ، فانه ضمن تلك التمفج يجعل من المسرح اداتا ثقافيـــه بالمعنى البورجوازى الصغير الذى لا يريد فى ظل أيديولوجيته المتذبذبة تحويل ما هو قائم فى سبيل ما يجب أن يكون ، بل يريد فى المقام الاول تحقيق لذة فكرية من وراء خلق مقارعات ثقافية ــ صالونية ، بعيدة كل البعد عن اشكالية الواقع المغربى الذى يطرح بالخط الاول استعمال مبدأ التحريض .

ان فهم الواقع الاشكالى المغربى ، يتطلب بالاساس كذلك فهم بنيته الفكرية (الوعى الاجتماعى) كطرف اساسى للاشكالية عامة ، هذه البنية الهجينة التى تشكلت مع التواطؤ التاريخـــى للبورجوازية مع الاقطاع والذى ساهم فى هذه الهجانة الاستعمار وشكله الجديد الامبريالية ، حيث أن البورجوازية العربية التى كان عليها أن تلعب دورها التاريخى كشقيقتها فى أوربا ، تحالفت وتاطرت ضمن اطار التصور الايديولوجى للاقطاعية التى سادت ((بشكل كامل من القرن 11 على الاقل حتى القرن 19 وكان (الاقطاعى) وما زال يمارس دوره فى الوطن العربى ...))(6) معتمداً على ((الجبرية)) و ((التبريرية)) كـــ ((ركنين أساسين لهـــا)) .

فاذا كان هذا ((التواطؤ التاريخى)) قد عبر عن نفسه ايديولوجيا فى الساحة فهل هذا الموقع يطرح أساسا التخلى عن مبدأ التحريض والعقلانية التى حاربها أين ما حلت وارتحلت ؟

أن التاكيد على اقصاء مبدأ التحريض يعبر بالملموس عن الارتماء المجانى فى احضان أجهزة ذلك التواطؤ . والذى سوف لن يحتفظ به التاريخ . من الموحد قطعا ، أن رصد الواقع الاشكالى الراهن المنظور اليه من زاوية علمية ، يجعل من المهام الاساسية المنوطة بالفن التحريض والعقلانية — (كما اكد ذلك جوركى نظريا وعمليا) — من أجل صياغة انسان جديد وأوضاع جديدة ترسم خطوط القطيعة النهائية مع ايديولوجية ذلك التواطؤ التى تستهدف بالخط الاول شل فاعلية الانسان / المكافح وربط مصيره (بجاذبية) السماء لا الارض .

وكخلاصة لهذه الملاحظة نستحضر — رأى طراد الكبيسى الذى ينطلق من فهم جيد للواقع العربى ودور الفن فيه حيث يقول / ((ولعل معظم الآثار العظيمة فى الاداب والفنون تلك التى حرضت وساهمت فى التحولات والثورات الاجتماعية ، وتلك التى رسخت التحولات الجديدة واكتنزت بنزوع الانسان وطموحه ... من أجل حياة جديدة)) (7) .

الملاحظة الخامسة :

من ضمن المآخذ كذلك التى يبدى بها هذا الاتجاه هى كون البريشتية تقوم على أساس التعليم والتحريض، فانها تـــ (مارس وصاية على جمهور قاصر)) !!

أعتقد أن هذا الخطاب فيه نوع من المبالغة ، بحيث اذا ما قمنا بتحليل عملى لبعض الاعمال البريشتية ، فاننا نجدها تقوم بتحليل موضوعى الظواهر المدروسة ، هذا التحليل الذى لا تريد

أن تفرضه على الجمهور كمسلمات قطعية ، بل على العكس يدخل مع الجمهور فى حوار عقلانى للوصول الى نقط مشتركة فى التحليل وبالتالى الخروج بموقف جماعى . ان البريشتنية لا تمارس اى وصاية بحكم أن آرائها لا تصوغها فى نهاية وردية — وهذا الطرح يدركه جيداً هذا الاتجاه — لانه يعتبر بان الجمهور يفكر ويحترم تفكيره وتبقى محاولته فى تطوير هذا التفكير على اساس طرح تساؤلات متعددة ، والتى يكون الحسم فيها للجماهير العريضة لانه ، « لا أحد يستطيع ان يحرر نفســه أو يحــرر الاخرين ، الناس يتحررون جماعيا » (8).

المتعامل الواعى مع مسرح الاخر لا ينفى الاصالة :

لقد كانت مشكلية التعامل مع الاخر وما تزال مجالا واسعا للصراع الايديولوجى بخطيه الرجعى والتقدمى والتى لا تسمح طبيعة الموضوع التطرق اليها .

الا ان المشكل هنا ، هو أن بعض الذين يشكل المسرح أحد أهتماماتهم الرئيسية يرون فى تعامل المسرح العربى اجمــالا والمسرح المغربى خاصة مع الاشكال المسرحيه الاكثر وعيا ونضجا والتى عانقت بالذات أهم قضايا تحرر الشعــوب كالمســرح السياسى عند بيسكاتو والملحمى عند بريشت و (التسجيلى) عند فايس ، اقول ، يرون فى ذلك التعامل انبهارا واستلابا و.. و ... والقائمة تطول بالنعوت التى تلغى ما يسمى بالاصالة عن ذلك التعامل !! الواضح ، ان التعامل مع تلك الاشكــال المسرحية التى افرزتها الحضارات الانسانية لاتعد انبهارا كما لا يصح لنا ان نضع لها بطاقة تعريف باعتبارها معطى مقاربا وبالتالى ، فان لاتفاعل مع الحضارات لا يلغى اطلاقا الاطلالة .

واذا ما انتقلنا الى الفلسفة — كمثال توضيحى فقط — وتساءلنا عن ما الذى جعل كل من أوغسطين والفرابى يتعاملان

مع افلاطون وهل هذا التعامل يعد انبهارا وهو حين عكسا آليا افلاطون ؟ ان مرجعية ذلك آتيه من طبيعة التمايز الطبقي التي كانت تدعو بالضرورة والالتزام استنظار افلاطون كنمـــــوذج للاحتذاء لحل اشكاليتهما بالاضافة الى مستواهما النقـــــاق وقتذاك ، فهما لم يعكسا قطعا وبالضبط فكر افلاطون عكســـا ببغاويا . لان ذلك تحكمت فيه قراءة مشروطة حضاريه اعتقد كذلك ((ان تحديد القراءة ومكانها واللحظة الحضارية التي تمت فيها من الاهمية بمكان .. انها المعطيات التي تتحكم في القراءة فتحمل القارىء على قراءة أمور معينة بكيفيه معينة)) (9) .

ان المستوى الحضاري للقراءة هو الذي يبرز فعلا العامل الذاتي للابداع في التعامل مع الاشكال المسرحية وهو الذي كذلك بالاضافة الى عامل اخرى يسمح موضوعيا بتعديل تلك الاشكال المسرحية حسب خصوصية الواقع المنقولة اليه .

هكذا فان الشروط الحضارية التي تحكمت في قراءة المسرح الجماهيري لكل من بريشت وفايس تعد ضرورية في المقام الاول عند تحليل أعماله والتي يمكن تلخيصها على النحو التالي :

1 ـــ القراءة انطلاقة من واقع هجين اجتماعيا وفكريا والذي ساهم في هجانته الاستعمار .

2 ـــ القمع الطبقي المزرى الـــذي أدى بدوره الى اعتنـــاق ايديولوجية المضطهدين والذي يعد فيهـــا المســـرح البريشتـــي والفايسي ركنين اساسين في تلك الايديولوجية .

3 ـــ بنية اللغة العربية التي تطرح الواقـــع العربـــي والتي سمحت باجتهادات تجاوزت احيانا طروح بريشت ، هـــــذه التجاوزات التي نجمل بعضها كالاتـــي :

الــف / عربيا ، لوحظ فى مسرح ونوس ما يلى : لقد « عرفت شخصية الحكواتى فى أعمال بريشت (دائرة الطباشير القوقازية) ، لكنها اتخذت لدى ونوس طابعا مميزا ، غنيا ، أن الحكواتى .. ليس أداة توصيل وحسب بل انه يرمز للتاريخ» كذلك (10) .

بــاء / مغربيا ، نجد أن التباعدية بالشكل الذى طرحت به فى مسرحية « الامطار والحرائق » لكويندى سالم تظهر بشكل بارز لان الرواسب الاسطورية والغيبية تطرح بالضرورة والالتزام لتوضيح التباعدية لضرب الايهام الذى شكل الحجر الاســاسى للمسرح المضــاد .

بناءا على ما طرح سلفا ، تظهر لنا اهمية التعامل مع الاشكال المسرحية التى تتميز بالطابع اتجدى الهادف ، وتظهر لنا كذلك اهمية خصوصية الواقع المغربى الذى يطرح امكانية التجاوز ، هذه الخصوصية التى تجعل من مسرحنا مسرحــا مخالفا بعد تعديل تلك الاشكال وتطويعها لتتلائم وخصوصيــة الواقع المغربى .

اذن ، بما ان الاحتفالية بشكلها البرشيدى تريد القيام على أساس انتقاد البريشتية وطرح نفسها كبديل له ، وبمــا ان تلك الانتقادات خاطئة ، فان الاحتفالية تقوم على أساس خاطىء ، فانها بدورها خاطئة .

ان المشروع القادم الذى سنقوم فيه بقراءة للمســـرح الجماهيرى سنبين بما فيه الكفاية مدى ايجابية التعامل مــع البريشتية ومدى نجاحها ايضا الشىء الذى يعطى الدليل مرة اخرى على عدم صحة تلك الانتقادات .

هــوامــش لهــا صلــة بالموضوع :

1) — أوضحنا فى مقال سابق الخلفيات الايديولوجية المسمية مسرح (الاحتراف/ والهوأة) واستبدلنا ذلك بـ المسرح (الرسمى الجماهيرى)

2) — الف باء الواقعية الاحتفالية فى المسرح / الثقافة الجديدة العدد 7، 1977

3) — المسرح العربى يبحث عن المسرح العربى (العلم الثقافى)

4) — النظرية المادية فى المعرفة / جارودى ، ص 235 ، دار دمشق .

5) — الموقف الادبى / نقد الايديولوجيا الاخلاقية فى مسرح بريشت / فيصل الدراج ص 37 — العدد 10 — 1975 مع المرجع الهام كذلك والذى اعتمد عليه الكاتب .

Critique de l'idiologie dans le théatre de Brecht.

6) — روجى جارودى بعد الصمت / د. ط. تيزينى

7) الاداب / طراد الكبيسى / ص 54 ، ع.4 س 1973

8) Paulo Rreire - Pédagogie des opprimes. o. c. m.

9) — الجابرى فى قراءته للفرابى ، اقلام : س.ج. السنة 2 — ع : 1

10) — الادب والايديولوجيا فى سوريا / تأليف جماعى .

ملاحظة : يعتبر هذا الرد بمثابة مقدمة للموضوع اللاحق / « مسرحة الاطار والحرق بين بريشت وفايس »

أحمـــد بنميمـــون

واعدوا قبورا للاحياء

المشهـد الاول

(تسمع اصوات كثيرة : هى الضجيج الذى يصدر فى العادة عن شارع فى مدينة مغربية صوت امراة يقترب، تبدو عجوز شمطاء فى ثياب رثة ، نعرف انهـا مـن المتسولات المشعوذات اللواتى يملأن شوارع الوطن):

المعجوز (بصوت عال) : **كل ما كان وما لم يكن**

من فضاءات يموج الضوء والالوان فيها

او دروب يرحل الانسان منها واليها

أو قبـــور هى كالارحـــام

منها كـــانت رحلـــة الانسان للدنيـــا

تنتهى الاجيال بالاتعاب والاحزان فيها

كل مـــا كان وما لم يكـــن

فـــوق هذى الارض ، فى كل الصور

صفـــة الفرد القدير ،

الواضح اقدرة بافعل عظيما ذى الكيـــان المستتر .

الشاب (يهمس لنفسه) : **الصفات المستحيلة**

لـــوجــود مستحيــل ،

المراة (بصوت عال) : **كل ما كان وما لم يكن**

(تتكفف شخصا يعبر أمامها بيدها فيخرج لها ثوب جيبه ويتابع سيـــره)

كــذب ، فى كــذب

الشاب (لنفسه) : **قلت حقــا**

(تسمعه المـــراة فتلتفـــت اليـــه)

المراة (للشاب) : **سيـــدى الحـــق اقـــول**

كثـــرت فى هذا الزمـــان المعصيات

والاكاذيب التى من كل نوع طمست اجلـــى الحـــائـــق

(يرتبك الشاب فيشيح عن المراة بوجهه)

(تقتـــرب المـــراة منـــه)

كل مـــا كـــان ومـــا ...

الشاب (يقاطعها محاولا التخلص منهـــا)

هـــو الحقيقـــة

المراة (تتابع كلامها) : **لم يكسن**

فوق هذى الارض فى كل الصور

صفــة الفــرد القديــر

(تمـد يدهــا للشاب الذى يبتعد عنهــا)

الشاب (متأففا من رائحة تنبعث من المراة)

يبلغ السيل الزبا الآن وهذى

المراة الحبلى خدعا وأكاذيب عتيقة

هذه المومس ما تفعل ، هل تطلب قوتا ام تخــاصــم ؟

قولهــا يبعث اتقيىء باحشائى

(يضع يده على فيه كمن يمنع قيئا يلتفت الى حيث تقف العجوز فيراها وقد بدا بالالتفاف حولها رجال يلبسون جلابيب بيضاء ثم يدفع لها احدهم بالمــال وبملابس جديدة ترتديها فى الحال علها تبدو فى حلة مناسبة ، ولكن ذلك كله لا يخفى شيئا من بشاعة العجوز ينسحب الشاب ، فى حين يحيط الرجال بالمراة موشوشين ، ثم ترتفع اصواتهم) :

الرجل الاول (للعجوز)

سنقول بانه ابنك ويحاول ان يتملص منك عقــوقــا

الرجل الثانى : **وسنحرجه**

ونضايقـــه حتى يرضى بك أمـــا

(تفرح العجوز ، لكن سرعان ما تنطفىء بسمتها)

العجوز (بأسف) : **أخشى أن يرفض**

الـــرجـــل الاول : **سيسيـــر أرفض به نحو السجن**

فنعـــذبـــه ان ظل على الانكـــار

نأخذ منه بآلاف الحين المعروفة والمجهولـــة اقـــرارا

أن يؤمـــن كل الايمـــان بـــك

العجـــــــوز : **واذا لم يفعـــل ؟**

الـــرجـــل الاول : **سقنـــاه الى الشنق**

العجـــــــوز : **مـــاذا سنكسب عندئـــذ ؟**

الـــرجـــل الاول : **نأتيك بـــآلاف الابنـــاء**

سنحـــاصرهم في الطرقـــات

العجوز (للرجل الاول) : **أبقاء الله لنا ذخرا**

(ترتمى على يده لتقبلها فيسحبها بتثاقل فتقبلها)

الرجل الاول (متكلفا الخجل) : **بل ابقاك لنا أنت الام لكل الابناء**

فانـــا لا ارضى ان يبحث ابنى

عن امراة يحسبها الام أو الاخت

او حتى الزوجة في بلد آخر

الرجـل الثـانـى : وأنـا أيضا أرفض ذلك

جماعة الرجال : (بغير نظام وبأصوات متداخلة)

نحن كذلك نرفض

نقبل من يهوى قلبه من جيل الابناء

لامرأه اخرى

العجـــوز : **لو أنى أرجـع طفلـه**

أو تأتى تلك النطفة من ماضى الى

يحمر على خدى الورد وتهل التفاح

يهوانى من يلقانى من أول وهله

لو انى أرجع تلـك الطفلـة

لشفـى ذلـك نفسى من كل جراح

الـرجـل الاول سنعيدك طفلـة

نقســم ان نرجع أيام العمر الاولى لك

حتى نبهتت نحن جبـار أمسن عـيت

فتعودين المعشوقة والمعبودة

ويراك الناس يخرون سجوداً بين يديك

العجـــوز : **صوت فى اعمـاقى يقـول :**

ان التـاريخ الملعون القاسى

لا يمشـى للخلـف

الـــرجـــل الاول : **سنكذبه ونقــول :**

(تنسحب المجماعة ويخرج المرجل الاول واضعا يده على كتــف المجــوز)

المشهـــــــد الثــــانـــى

(تعود الانارة كما كانت على نفس المكان ، يدخل شاب من جهة المسرح اليمنى ثــم ياتى من الجهـــه اليسرى ثم جماعة وثانية الى ان تمتلىء السـاحة بمجموعة من الشباب لا يوجد بينهم الشاب الــذى رايــنــاه فى المشهـــد الاول)

شاب اول (أول من دخل الساحة) :

لا ندرى ماذا أصاب

فينــا بعض كبــار الســن

يدعون الى آن نختار مبادئنا من أقوال امراة

نخرت ديدان الاعوام اجثة منها نجعلها الام

لاندرى لماذا يتاخر بعض الناس

فى دفـــن المــوتــى ؟

أتملأ كل فضاء رائحة نتنة ؟

شـــــاب ثـــان : **احيانا يقع التاخيــر**

حتى تعــرف أسبــاب المــوت

شـــــاب ثـالـــث : **احيــانــا من اجل بحوث فى الطب**

شـــــاب رابـــــع : فى بعض الحـــالات

حتـــى تخبـــر عائلة المتوفى

شـــــاب أول : لكـــن مـــاذا يكـــون الامـــر

ان قامت روح بين ذويهـــا ؟

أو لا يعنى هذا ان الناس مجانين ؟

لكـــن الاخطـــر

ان الدعوة صارت تتسرب حتى لصغار السن

ممـــن يعـــرف كـــل منهم أمـــه

رضعوا منها الحب وفتحت الاعين منهم

حتى يبصروا فى هذا العالم من عدل

ودعتهم أن يصنعوا تاريخهم كيف يشاءون

لا شيء خطير فى هذى الايام يهددنا

ابشع من ان نسجد فى محراب الشمطاء

(يـــدخـــل الرجـــل الاول)

الرجل الاول (فى فرحة الذى امسك بغيد وبنبرة تهديد) :

هل انهيت كـــلامـــك ؟

شـــــاب اول : بل انى لم اتكلم بعـــد . . .

الـــرجـــل الاول : مـــاذا كنت تقول

عـــن دفـــن الموتـــى

أو ما تعرف ان تذكر موتانا بخير ؟

شـــــاب أول : **كنا نتكلم عن موت وهمى**

ونثرثر عن دفن نظــرى

الــرجــل الاول : **ماذا دعاكم أن تفعلوا ذلك ؟**

الشـــاب الاول : **رائحته نتنة**

بدأت تملأ هذا الجو وتغتصب الاوكسيجين

فاعتلت حقا انسام اصائلنا

(الشباب الذين فى الساحة يضحكون ويغمزون الرجل بأصابعهم علامة التأسف)

الــرجــل الاول (يتضايق ويتراجع منسحبا وهو يتوعدهم)

سنــريكــم .. سنــريكــم

يـا أولاد الزمن الـعـاهر يا انتم يـا ...

(يختفــى الرجل مبتعدا وهو يصرخ)

المشهــد الثــالث

(العجوز تجلس على اريكة ممتازة ، وقد ارتدت من الملابس أفخرها ، المكان تنبعث منه روائح طيبة من مباخر ، ويحيط بالعجوز رجلان يرشانها باحسن أنواع العطور حتى لا تطغى على الجو رائحة النتن التى تنبعث منها) :

العجـــــوز : **اشعر بالموت يدب حثيثا فى أوصالى**

الرجل الايمـــن : بل ذاك دبيب حياة فيها

هو النسغ سريعا يتجدد فى اعرافك

العجـــــــوز : أشعر بالموت يدب حثيثا فى أوصالى

الرجـــل الايمـــن : بل ذاك دبيب حيـــاة فيها

هو النسغ سريعا يتجدد فى أعرافك

العجـــــــوز : لا أبصر غير ضباب ودخـــان

المـــرجل الايســـر : تلك سحابة صيف

العجـــــــوز : قلبى لا أسمع دقاته

المرجـــل الايمـــن : كالطبل الافريقى قلبك سوف تصير

دقاته ملء الاسماع وملء صدور الناس جميعا

العجـــــــوز : اشعر بالنوم يخيط جفونى

(تتهاوى فيسرع الرجل الايسر اليها ليعيدها الى
وضعهـــا السابق متداعية الاطراف)

اتــركنـــى انـــام

الرجـــل الايمـــن : نخشى الا تصحين (تنـــام)

المـــرجل الايســـر : هـــل نامت

المرجـــل الايمـــن : ارجـــو ذلـــك

حتى تسترجع بعض الراحة

المـــرجل الايســـر : لن تسترجع بالنوم الراحة

وعليها ان تتحرك أكثـــر

ان تنضو عنها ستارات الادواء

فعليها ان تخرج للشمس .

المـــرجل الايمـــن : حتى من غير شموس

سنعيد اليها القــوة

فتعود الى سيرتها الاولى

سنجددها فى اجسام اخرى

وستمتد وتنتشر على طول وعرض الارض.

لا تخشى شيئا نحن هنا نعرف ماذا نريد

هذى المرأة هى اصالتنا حتى ان ماتت نحييها

نبعثها متوردة الوجنات وجيدة البنية

ونقاتل من يملك أن يحييها أوتحيا فيه ولايفعل

فالعاقون من الابناء تخلوا عنها

ومضوا فى طلب امراة اخرى

تغريهم بخداع فنون عصرية

هذى المراة اقسم اقوى السادة

ان تسترجع فى أقرب وقت كل قواها .

(يظلم المشــهــد)

المشهد الرابع

(المكان زنزانة ، الشاب الذى رأيناه فى المشهد الاول مقيد الى مقعد وقد وقف الى جانبيه الرجلان الاول والثانى ، هناك لكمات شديدة المزرقة على وجه الشاب) :

الرجل الاول : او ما زلت على رفضك

الشاب : ان مرت بخيالى

صعدت من احشائى نافورة قيىء (يبصق)

الرجل الاول : تهما اخرى الآن بهذا تضاف عليك

اولاها : انك من حرض ابناء الناس على العصيان

اولا تعترفون بدور المراة منذ زمان

فى حرب التحرير وكيف ارتفعت اصوات

تدعو لجهاد تحت لواء المراة

افان شاخت بعد التحرير

او غلتم فى الانكار وناديتم بسواها انثى لاعصر

رمزاً للكفر وشق عصا الطاعة

الشاب : لم اعرف انثاكم يوما

امى أعرفها ، احفظ كل تصاويرها فى القلب

الرجل الاول : (يصفع الشاب على وجهه) : اسكت

(يسيل بعض الدم من فم الشاب)

هـذا دمـك

سنصبه حتى آخر قطـرة (يمر يده على شفتيه ثم يمسها على قميصه)

الشـــاب : **حتى لو افرغتم أعراقى مما فيها**

فدمى لن يرسم مندسا فوق الارض ،

الا صورة من تسكن أعماقى

(ينكب الرجل الاول على الفتى بالصفع والضرب حتى يغمى على الشاب ، يظلم المشهد)

المشهـد الخـامس

(العجوز وقد استعادت قوتها ، رغم روائح النتن التى تنبعث منها . نفس المنظر فى المشهد الثالث ، بحضور الرجل الاول)

العجوز : (بصوت واثق) **فى زمن القوة**

كنت قاتل ، أعدم من يتراجع عن حبى

او يرتد الى انكارى

آه ، ليت الماضى يعـود

حتى يدرى من يستهزىء من صبيان العصر بافكارى

ماذا يكون مصيره ،

لن اتوسط فى احكامى بعد الآن

من يسخر منى يعدم

من يخضع لى فهو الارضى والاسعد ايا كان

الرجل الاول : (بصوت خائف) سندمرهم، ان عشقوا امراة اخرى

او ساروا على درب لا يمشى اليك

ابقــاك الله لنــا ذخــرا

(ينحنى على يدها فيقبلها ، تشمخ المرأة براسهــا الى اعلى فى حين ترتفع قامة الرجل وقد بدت علامات تأفف على وجهــه) .

المشهــد السـادس

(ساحة يتوافد عليها رجال مجلببون هم نفس الرجال الذين احاطوا بالمراة فى المشهد الاول)

المــرجــل الاول : ايهــا النــاس اسمعونى

بلــغ السيل الزبــا الآن

واذا نحن تقاعسنا عن الــردع ،

تــراجعنــا عن القمــع ،

غلبنــا .

اوغل الابنــاء فى العصيان حتى

لم نعــد نلقى اليهم اذنا تصغى لنصح

فلنقارعهم بحد السيف اذ زاغوا ولم ينفع كلام

فاعفو عنا اللهم وانصرنا عليهم

واجعل الجنة ماوانا فنحن المؤمنون

واجعل النـــار عليهم خالدين

فيها ماالشرقت الشمس على أرضك ماصليت

الخمس بها فى كل حين

رضـــى الله عنينا وعلى من سبقونا لجهاد

المـــارقيـــن

جمـــاعة المرجـــال : آميـــن

الـــرجل الثـــانـــى : حسن قولك لكن

المـــرجـــل الاول : (مقاطعا بتعجب) ما تقول ؟

الرجـــل الثـــانـــى : يحسن ان ناخذهم فى البدء بلين

المـــرجـــل الاول : قـــد تجاوزنا البداية

شبت النار فلن تطفأ بعد الان الا بسيول الدماء

ان تراجعنا عن القمع كما قلت غلبنا ودحرنا

فالان . . . (فترة صمت قصيرة)

الـــرجل الثـــانـــى : فلتقل أنت ونحن التابعون

الـــرجـــل الاول : نعمل الفكر ونعلنها الحرب العوان

فاعدوا ما استطعتم من قوى

وربـــاط الخيل حتى نقهر الطاغوت

(جماعة الرجال ترفع لافتات كتبت عليها كلمة واعدوا بيـــن سيفيـــن)

الجمـــــاعـــــة : **نحن معك**

وعلى هديك حتى آخر الدرب نسير .

نملأ الارض سجونا وخضوعا وقبور

نجعل العالم قبرا يسع الضالين مهما كثروا

نملأ الساحات قتلا وسيوفا

نفقـــئ الاعينـــا

نبقـــر الابطنـــا

وعلى هديك حتى آخر الدرب نسير .

المشهـــد السابـــع

(شباب تتوسطهم فتـــاة رائعة الحسن تستغرقهـــم مناقشة بأصوات لا تسمع يعبر عنها بالحركة)

شـــاب أول : (للفتاة التى تصغى باهتمام)

سجنوا منا الكثيـــر

دفعوا منا الى المنفى الكثيـــر

واراقوا فى دروب الارض انهار الدماء

فعلى كل رصيف

ورده حمرا على صدر رفيق

ورفضنا ان نهادن

ورفضنا ان ننافق

نحن لن نحنى جباهنا للجثث

ولكن ندفن الموتى ، نطهر

هذه الاجواء من نتن الخبيث

نخرج الاحياء من ليل القبور

نعلن الحرب على الماضى

نرفض رجعة الموتى

نرفض ان ياخذنا الموتى اليهم

الفتاة : لن اتخلى عنكم

مهما حاولوا نعتى بالاوصاف المرذولة

لن امنح اذنى لكلام مغترض يحكى عنى

يقولون بانى دخيلة

شاب أول : فليقولوا ما يريدون ، انفضحوا اليوم

عرفنا منهم كل النوايا السيئة

الفتاة : هم ارادوا ان يصير الكون سجنا

وقبورا تملأ الارض لمن يحلم منكم

شاب أول : من غير المعقول

أن يطرد من هذى الدنيا الحى

ليحتل الميت مقعـــده أو موطيء أقدامـــه

(يدخل الرجل الاول)

(تسمع جلبة تقترب هى نفس الاصوات التى سمعناها فى المشهد الاول يدخل الرجال المجلببون)

الـــرجـــل الاول : **بل انا جئناكم مسرورين لنخبركم**

انـــا أعددنا مساحات للدفـــن

شـــاب أول : **هل حقا أنهيتم دفن الشمطاء**

الرجل الاول (متشفيا) **من تدعوها الشمطاء**

عادت فاتنة أحسن

والآن ... ستقومون بكل هدوء

وستمشون مع هذا الرجل .

(يقف امامه رجل هو حفار القبور وفى يده أدواته)

لا يحاول أحد منكم فرارا

فلكل منكم الآن على حسب القياس

قبره ،

نعلن أنا نرفع عنكم ثمن التكليف أو اى ضريبة

فلتسيروا خلفه منتظمين

أحمـــد بنميـــمـــون

حسن الامرانى

اوان الشد

ترسل الريح وصلتها الهمجية بين الهزيع الاخير وبين تنفس
صبح التحساسين

ــ هل تعجز الريح عن محو الحكايا التى تنتقل بين نساء المدينة،
او تتحرك فى البلد الميت ؟

ــ يا بلدى ، لا تكن آيسا فالرياح لواقح

والشهداء يعودون فى زمن الغيم

والادعياء يموتون فى غيظهم واحدا واحدا

والمساكين يتخذون الاسنة اوطانهم

والشموس منافى، يسأل نجم : اماآن ــ بعد ــ أوان السفر؟

* * *

عناصف ذلك المنتظر

بالذى كان يرسم فى الماء ، ما ينقش الموج فـوق الحجـر
عاصف بالذى كـان يعـزف لحـن الولاء
للذى يستجير الرصاص به ، ثم يطلقه — حين يطاقه — للوراء
عاصف برقاب المآذن لا تشهر السيف بالحق فى أوجه الادعياء

* * *

نحـن مـولاى نجنـح للسلـم . .
(ها قد اتوا يحملون المصاحف فوق الاسنة
تلهج — أنيـابهم — بالدعـاء
انهم عائدون ، ليحمل رأس الحسين على رأس رمـح
يعـودون يـا كـربـلاء)
— نحن نجنح للسلـم . .
— هـا انهم اجمعـوا امرهم ، وغدا الركب اسفـل منكـم
الا فادخلـوا زمـن الشـد
هيـا ادخلـوا فى الوغـى آمنيـن .
— نحـن للسلـم .
(قال أتستبدلون الذى هو ادنى — الذن — بالذى هو خير ؟
اهبطوا ارض مصر ، فان لكم ما سألتم وما تسألون) .

حسن الامرانى .

بـوزويع محمـد عبـده

بوركت زهورا برية

ارسم وجهـك فـوق كفـى يدمـى
ارسم وجهـك فـوق كفـى بغذى بلحمـى
واطـوف عليـه بعينـى سبـع مـرات
فى كـل طـوئف لجـذع عضـواً من اعضـائـى
اتوغـل بـه فى وجهـك الحجـرى المتسكـع
فى تضـاريـس النيـل البـوهيميـة .
اعلـن انـى عـاشـق مجنـون
اسـافـر عبـر يـراعـى وجهـك للشـط
الاخـر

تنقلنـى مـوجـات هيـامـى
للعـالـم الدامى

بوركت زهورا بريئة

بوركت سواعد مفتولة

انى أحيى فيك ثانية

أستنشق رائحة من دمى

خلتها من جزع ضاعت فى تلاجات

ميناهوس

اتجلى متلثما مرة اخرى

رافعا رايتنا الحمراء فوق الانقاض

هذا قدرى ، وذا مدفعى يوغل فى

آنانكم

يعبر ردهات قصوركم ومضاجعكم

فافتحوا الابواب له أو لا تفتحوها

انه يكتسح نوق جواريكم

فلا تسمعوا منهن غناء الا ببكاء

هذا قدرى ـــ مدفعى يوغل فى أعماقكم

اعماقى

ينقثنى عبر بلاغات الثوار

الى أعماق الدنيا السفلى والعليا

بوركت زهورا بريئة

بــوركــت ســـواعـــد مفتـــولـــة

اعلـــو اعلـــو اعلـــو

ثـــم اسقـــط كالميـــراج الفـــانتـــوم

مستمعا صاغيا ، خطب الراديو •

تتشكل فى ذهنـــى احـــرف لاتمنـــى

عنـــاكـــب تنهشنـــى

لكن يراعـــى يبقـــى مـــرفـــوعـــا

شاهدا فوهته على الميراج الفانتوم

وكل الحشرات

فهذا قـــدرى ـــ وذا قلمـــى •

« « « « «

هذا قـــدرى يـــوصـــد الابـــواب

وذا قلمـــى يفتحهـــا

هذا قـــدرى يأزمنـــى حـــد رجلـــى

ذا قامـــى يطلقهـــا

وانـــا بين الباب الموصودة ـــ المفتوحة

بين الرجل المحدودة ـــ المطلـــوقـــة

اسقـــط اعلـــو

اسقـــط آاعلو متوغلا بك فى وجهك آلحجرى

آلمتسكـــع فى تضـــاريس الليـــل

البـــوهميـــة .

عمران عبد السلام

رحلة فى صلب المدينة

قف ! كم استدار
رماها بعمق لنارة الضوء الاحمر
تمضغه الاسمال
ياكله الغش من القفى
يقتحم فى كبرياء ارض القار
يقهقه حتى الشفة السفلى
فى راسه الف امراة حبلى
فى قدميه تنين ، وبقايا رطوبة جدار .
فى ثنايا الظلام ، رمز للبطولات السفلى
رقم ! فى غابة الاسمنت ليس الا
شىء فى درب الاحداق
حداء اغبر فى موكب المساق ..

ولكــن ليس الــى أعلــى ،

آه .. صاح ، نــم أزيــد واقعــى

وانحــدر يسبــر ثنايــا الاعمــاق

فى سفــر طوســل نحــو الشمس ،

مــا أقســاه !

فالشمس فى بــلادى ليــس الا .

واحتــواه من الجدارات (باب منصور)

حيث شــن بالفحــم حــرب الثغــور :

فى ايســر الركن خــط بــارليــف

يغــازل / مــن تحــت / يهــرج ايفيــل

ويطل بهــول الصليــب المعقــوف

وســداجــات الاعــراب يــركبهــا بفــور

فى تركيبــة المضلــة ، الثــور

وفى العمــق دبــابــة فى جملــة سطــور

تــأكــل الافــراس ،

تــدك سيــف عنتــرة العبســى

وتقتــدم مــن الجهــة الاخــرى مدينــة صــور

وتكفــا يختضــن الابــريــاء

يــرد بصــدره عنهــم قــدائــف المقــول

وطـــوح بـــراســـه صـــراع الاشقيـــاء :
ــ ذاك مـــن حقـــه .. هـــذا من حقـــى
ــ تنزح انـــت الى الجنـــوب
ــ تســـافـــر انـــت ولا تـــاوب
ــ تخـــرج مـــن بـــلادى ...
ــ تحـــد النســـل انـــت بالحبـــوب
والمـــدفـــع يلتهـــم الجنـــوب .
وتبعثـــر لسيـــدى امـــره !
ايـــركـــد نحـــو الشمال ام الجنـــوب ،
أم يحكـــم حول المـــارد طوقـــه ؟
لقـــد اضنـــى المـــارد كبلـــه
ويأتيـــه صـــوت من خلـــف الجدار :
اعـــد المـــارد حقلـــه ...
ثـــم يجمـــع السقـــراط شملـــه
فى سفر طـــويـــل ...
عنـــد الجـــدار الاسمـــاعيـــلى يشـــرب نخبـــه
مـــن نبيـــذ التيـــن
او مـــن عســـل السكـــر
مـــن زيـــت (الزرهون) يصنع خبـــزه

يستعد للرحيل ...

وتضيع الانشودة فى يد النخاس

يمتص رحيق الزهور

ويطفىء فى الخد نوره

يطمع فى هذا القلب العتيد

فيقهقه سيدى السقراط

فى ضحكة حادية الرذاذ

يقول فيها : يا عباد ...

يقول فيها : يا أوغاد

يقول ... يقول ...

فلا القول منه يجدى ...

ولا أنا اسكت عنى

يضنينى همسه ... يضنينى ... :

ــ عراق ... عراق ...

ــ تكاد تعانقنا من جديد كربلاء

ــ روسى أسته ...

ــ نامت نواطير مصر ...

فاين غاب الاطلس الجبار ؟

واين توارى طارق المغوار ؟

ـ عصـــارات نبيــذ اســت ...

وانحنــى يلعــق التــراب

يفرق فى الصمــت ،

يحــدد مسام الخــراب

ثــم .. فى لمحـــة بقــى كفــه

ثــم .. فى لمحـــة بقــر كفــه

وطـــوق بالاحمر قديفة باتجاه المحــراب .

يهمهم المطــر علـــى درب المدينـــة

ياخــذ طريقـــه الى الحقــول ،

يــركــب وجـــه افــلاطونى

يمتطـــى السكينـــة

يـــزحفـــان باتجاه المدينـــة

حيــث تقـــاعست الصـــلاة عن الصـــلاة

وتراجعت الى ركن السفينـــة

بـــاتجـــاه المنبـــر المحقــروق ...

وفى غلطـــة ... لــم يخلــع نعلــه

ولم يسو على عادته يـــوم الصلاة شعره

نتـــف ابطـــه ،

وقـــاد فى رقعه جنـــده

بواســل على خيول اطلس المرعار !
شامخون يرهبهــم التتــار
وصــوب الى هنــاك زحفــه ،
من شــراع لــه يبــاب المنصــور
ينــزل السفــن ... ينــزل السقور
فلا ذا حقى .. ولا ذا حقــه
ولا انت ابن الخصب وهو ابن الصخــرو
« فقــد يصبــح الشــر شــرور »
واستوى ينشــر فى النــاس خلــده
رصــين ، فى عينــه امــل الدهــور
انــوف ، لم يصمــد النــاس خــده
غــيــور ام يقمــده الــم فى الصــدور
وحــده ســاحــة للوغــى
وحــده عــالــم يفــور
واصــد فى وجــه التتــار صــدره
وعــن رقعتــه لم يرفــع بــصــره
يقــرا فينــا الاسفــار ة
تكــاد تزدرينــا الحيــاة
وتستقــر فينــا جحــافل المغــول

كدنــا نغــرق تــالشفيــن بالعــار

فــلا انتــم وقتهــا منــى •••

ولا نحن ابنــاء هذا الاطلس الجبــار !

عمــران عبد الســلام

احمـــد المـــدينـــى :

الموت صاعق هذا الوطن

(اقصوصـــة)

لم يكن ثمة شيء يذكر ، ولم أكن اذكر شيئا ، ولا يذكرني شيء او أتذكر شيئا على الاطلاق ، غير انى كنت هناك كما كنت هنا قبلئذ وبعدئذ ساظل حيث انا لا يزحزحنى شيء أحد عـــن مـــوضعـــى حينئـــذ .

هكذا كنت اتحدى اللحظة باخرى استدرجها ، واتـــداوى بتتابع لحظات أعرف انها ستفنى أمامى وهى تتلوث وتلهث فانية فى مسيرة منتهية . ولم أكن لاحفل بالبقر والغنـــم والمعجيـــج والضجيج وطور سنين وهذا البلد المقموع تحت رايات ممرغة .

لم يكن ثمة شيء يذكر ، وكل شيء كان الذكر والذكرى والتذاكر والذكريات ، هذا ما احفظه لكم الان .

... وتحت رعاية الله تبارك وتعالى تعالى تعالى ، وتحت بريق الامام المستمد مهابته من نفح نبينا عليه الصلاة والسلام ، وقبالة اللوحة التى تمنع تناول الخمر على المسلمين المؤرخـــة بظهير 1936 . حذاء الفاصل الخشبى ، هذا المتكأ والجدار ، فى الصيف والشتاء ، القمع والانقماع ، الوجود والانعـــدام ، وفى

الليل ، فى توصل الحزن تراشق الكلمات وأمام هذا الوجه الاصفر العابر امامى ، المصطدم بى المتحفز لى زحفا نحو مدن المجابهة ..

تحت رعاية الله تبارك وتعالى وفى ارض مولانا المعطاء ، كنت جالسا فوق الكرسى القائم خارج ارادتى ، اشرب خمرة باذن الله وتحت حراسة وأذن جند وشرطة مولانا الامام ومحصلى ضرائبه وخراجه . كنت منتشيا بهذه الكؤوس التى تتدفـــق ، تقطر ، تنساب على حوافى شفتى ، ترصع وتترصع ، وانا هنا أسترق ابصر اليكم ، اليكم جميعا ايها الناس (من خلل الزجاج وبدونه ، كنت أرى كل شىء ، لكننى لن أخبركم سوى بالقليل مما رايـــت) .

... كنت اراكم فى شارعكم العظيم هـــذا ، فى مدينتكـــم العظيمة هاته ، فى زمانكم العظيم هذا ، فى ايام ولايتكم واحكامكم المرصعة بالجداول والحدائق المصــادرة والزنـــازن المحتشـــدة والرؤوس المتوجة ، والاهم من هذا كله هذه اسيقان النقية الطرية الحلية وهى تغدو وتتوافد وتوقد وتتقد وتبهج وتتوهج فى ممتكة الحجاب الحاجز ، عذرا ، فانا أتغـــزل فى فتيـــاتكن الجميلات الطريات الذاهبات العائدات الغانيات الرائحات على ذاكرة الامة المخمورة بالاسى والموت .

لم يكن ثمة موت اللحظة ، كانت الحياة تتنشـــق وترتعش وتعشش فى العيون المتالقة الخدود المتوهجة ، كنت استـــرق النظر الى الجموع الذاهبة العائدة (لا أبا لك يسام). هـــذه الجموع ، زمنى الحديد لم يلتمع بعد ، لم يبزغ له بريق بعد . كيف أنشق هذه الحياة السائبة وهى تختنق فى المجارى وتفوح بالعطالة والعطب . كانوا يسيرون ويحاذون الفتيات الطريات . وكنت مرة احمل الكاس واحتسى منه رشفـــات . واستعـــذب مرارة نفسى ومرارة هذا الشارع هذه المدينة هذا العالم !

من الطرف الآخر للمدينة زمن آخر قد بدأ . زمن الزحف . زمن الهكسوس . بدوا مدمعين هنجين من بعيد ، عطشنا للدم لطعام الناس وأسمائهم وسحناتهم المريدة وظهورهم المقوسة . زمن آخر كان قد بدا واخذ يمتد ويستطيل . كانوا يتوعدون وينذرون من بعيد والنقع مثار امامهم ومن خلفهم ، فى حين كان الشارع مزدانا ومرصعا بعرائس (الغد الافضل) وافتيات الطريت المخادع الهانئة ، وهذا دون أن أكف عن احتساء خمرتي بتلذذ .... كانوا يحملون الفؤوس والعصى والحراب والجبال والنجود نحو المدينة المعمورة والمسكونة بتاريخ اشتعل شيبا . هذا زمن آخر للهكسوس فيه صولات وجولات لهم وأنت اصمت فى مكانك أو انقمع . تداخل فى كاسك أو الفاصل اختبئ أو فى هذا أسطبور اللامجدى العابر والمسمر ايضا . فهذه اللحظة امامك تحمل اليك كل القهر وسلالات الاصفاد والعرق المهان . والكل ملقى به امامك فى مزاد القهر المسحق العلني فى حين يزحف الهكسوس وأنت تتشنج ببقايا أعصاب وتسرق النظر مرة واخرى الى الساعة المعلقة على الحائط ، وكانوا هم يسترقون النظر الى ساعاتهم رافعين معاصمهم الى أعلى ، معيدين النظر مرات عديدة والبعض منهم يتسلل من بهرجة الشارع وهرجه ليقمع نفسه بكأس تذهب عنه بعض الغم والحزن .

كان مؤشرا الساعة يقتربان من التاسعة ، ومع هذا الاقتراب كان نذير اغلاق الحان ، وهذا سيسبب لى ازعاجا لا حدود له ، فمن سيقدم لك الدوخة فى هذه المدينة التى يزحف نحوها الهكسوس . انهم يزحفون مع التاسعة وقبلها بقليل احيانا تسبقهم ارواحهم وفحيحهم كما تتقدمهم هرأواتهم وباقى معدات قمعهم وارهابهم ، هؤلاء لا يفهمون سوى لغة القمع والارهاب ، وانا لم يكن يعنينى من هذا الخلق الخلط الهجين

سوى كاسى الذى سيسفح دمها فى التاسعة ، وتضيع فى مزاد النهر السحق العفى .

انهم الآن يتجهون راسا الى الشارع الرئيسى لهذه المدينة الرئيسية فى هذا الزمن الرئيسى ، بينما قفز الاشخاص الرئيسيون الى سياراتهم الرئيسية طالبين السلامة ! واخذ الهوام يتقافزون ، ويعدون ، عدوا مضطربا وهائجا كانما اصابهم مس من شىء ما . كنت انتظر اللحظة المنشودة واستحث النادل ان يملأ لى المزيد من الكؤوس . اندفعوا يتقافزون ويعدون عدوا ويتداخلون فى بعضهم وصرخات الرعب تستحيل سياطا تلهب اعضاءهم من بعيد . وفى لحظة واحدة وقفت انفاسهم جميعا وانسدلت جفونهم على قواهم التى خارت وفروا ساجدين راكعين عابدين قانتين حامدين شاكرين متسولين الرحمة والغفران ساجدين عابدين مقبلين الايادى والاقدام . راجين رضى الله والامام . مقدمين الذبائح من خراف ورؤوس أطفال وقلوب فتيان وبكارة عذراوات نديات ، وصكوك للاقرار بالتقهقر خلف هذه الاسوار ، آذانها هنا فى كل مكان هذه الاصفاد والاسوار !

... بدا ان التبتل قد رقى الى سمع السماء ، فهب من يشير الى الهكسوس ان افرجوا عن هذه السائمة واتركوها تسعى فى الارض فتحمل لنا مزيدا من الثمار والغلال . ولا تنسوا ارق عذراواتكم ، آه وآه وآه ..

حين بلغت التاسعة ، تماما ، كانت حنجرتى قد تحولت الى صحراء يلهب رمالها القيض ، وكان بعضهم على طول الفاصل الخشبى يلهث او يصرخ أو يستفز او يترنح ، والكل يهفو لكاس اخرى ، وليحدث الزلزال بعد ذلك او ليتم محاصرة الشوارع او لتنهد الاسوار ، كاس اخرى مقابل هذه المدينة ، صحت بالنادل

كاس واحدة أطرد بعدها نفسى من هذا الكل ومن هذا العدم من هذا الفراغ ومن هذا الامتلاء ، منى ومنكم . انا الآن أتحدث فى الوقت الذى علىّ ان اسمع فيه كل شىء : صوت الشنق والطلق والرصاص الملعلع فى الساحات والغابات الطرقـات ، صـوت النشيج الخافت العابر الازقة والقارات المسحولة فى وجه زمن أصم أمم مستباحة ، صوت هذه المدينة المحطمة التى استباحها الهكسوس ، وان أسمع هدير دماغى وأسجل كل الذبذبات التى تعلق بذهن بشرية عطشى الى كؤوس خمرة وأكواب من دماء مستبيحيها . وان أرقص قبل الاوان فى تشنج أوردة الدم فـى الوطن ، شرايين الدم للوطن ، خارطة الوطن فى الدم ، الدم فى خارطة الوطن دم ، وامرغ وجهى عبر امتدادات هذه الخارطة ، امرغ جلدى ثم انزعه عنى لامرغ عظامى وافككها لاتلاشى فى وطن الدم ، وترقص بعدها العظام الهيكل الهياكل الواهنـة رقصـة عيساوية او هداوية وتظل ترقص ثم تنهج وتنهج ولا تنى تتنفس ببطء ، وتتقوس . عكاكيز نضرب فى الفراغ .. كنت قد كورت يدى فى غضب وانفعال ظاهرين وضربت بها الفاصل الخشبى طلبا كاسا أخرى . ولم يكلف سدل نفسه عناء اجابتى ، وانما شار بسبابته الى الساعة المعلقة على الحائط . كانت التاسعة ودقائق . وعرفت لحظتئذ أنه لم يبق الا انكنس ، وكنت لاأحب ان اكنس مع قيىء الثملين ، ولم أكن قد ثملت بعد ، وانى لى بتلك الدوخة التيه بذلك السفر الهجير ، فقد مئت الصحـراء بداخلى بالحمحمات وبالصهيل ، وبصدى القرون الاجيال البائدة من عطش سغب بخور وتعاويذ بسملات وحوقلات عنعنات .

لم أكن قد ثملت ، وانى لى ذلك والوطن كله ، الفـاصل الخشبى كله ، الشارع العظيم فى المدينة المنتهكة حقول من دم . وسفهت قول القائل ان أحقنوا دماء المسلمين والتفوا حـول

(الشمس والبدر المنير) بل قمت : مزيدا من الدوخة فى اغنانى وفى النشرات الجوية والسياحية ، وفى اخطبوط حصار الهكسوس وعند الجبهات المشتملة فيها نيران القرى الفائحة بكرم الضيافة و (حسن الجوار) وحسبنا الله ونعم الوكيل ... ولا تنسوا ذلك القمر الطريد الذى انطفأ من اجل امة سـاقبـة .

فى التاسعة حملوهم فى سيارات مغلقة ، معصوبى العيون، لايرون شيئا ، ويرون كل شىء ، كانوا يرون الشمس حقـا ، الشمس الحقيقة . كانوا يدفعونهم ويهشون بعصى وبنادق كما لو كانوا قطيعا من الخراف . ونحن قطيع نساق كل نفس مصطنع نحو المجازر المبثوثة فى اطراف المدن . فى التاسعة كان تاريخ هذه المدينة وتلك اصم اخرس اعمى والسلالة مغشية الابصار ، من منكم راى شيئا !

يا سيدى نحن طوع بنانك وأمرتك ! لا نـرى لا نسمـع لا ننطق .. كان الحداد معلنا فوق الضحكات والهتافات الاجبارية والمحقونة . ساقوهم . لم أر شيئا ورأيت كل شىء ولم اسمع وسمعت واختلطت الحياة بالموت والموت بالصحـراء المعـافة المنتشرة فى حلقى فى جوفى الذى ما زال فى حاجة الى كاس اخرى قبل ان يبحر هذا العالم نحو مناحته الابدية . كانت عيونهـم معصوبة لا ترى العشب الاخضر النابت فى ربيع هذا العـام والحقول التى ازهرت من عرقهم وسقيت بدمهم ، كانت عيونهم فى الظلام ، اما هم فكانوا يسبحون متبهرين فى الضوء ، موجودين فى الضوء . مملكة الحلكة بلا ضوء ، فى قلوب ابنائها ضوء — الابادة ضوء الشنق الخنق ضوء فى مملكة الحلكة . السيف عتمة ، طقوس التقتيل والسفك عتمة . هاهم الهكسوس يزحفون على مدنكم وقراكم ومداشركم كما زحف المغول والتتر من قبل ، اعنى من زحفهم . ياتون على الحرث والنسل ويصنعون من عيون

يطوق المدينة ، انتبهوا ابحثوا بينكم فيكم ، ستجدون الرؤوس مقذوفة تحت الكراسى ، فى جيوبكم ، فى غرفكم الدافئة فى الصحون . مختومة بها آذانكم ــ هذا زمن الولائم الدموية الرجال قلادة لصدر الآلهة ومن رؤوس أشجع الفتيان حراما فاحتسى ايتها الآلهة العطشى .

فى التاسعة تم الخنق الشنق الاصدار الغدر الرخص الموت الابادة . فى الغابات امام الشهود فى غياب التاريخ فى صخب المدن الاراضى القفراء المدموغة بالقحط فى فسق المخادع فى حنين الاطفال ضياع الاطفال الضائعين بلا ملاذ ، مشيا وقعودا تصاعدت الانفاس هب اللفح حريق كان الزمن تعالت تصاعدت فيه الآهات والزفرات واحتقن وجهى ولم تبرح مخيلتى واعضائى لعلعة السياط وحمرة النار توضع على الاجساد حين كان النعاس سماء هذى البلاد ، هو تاريخ فى الحلكة معلق فى اسوار مملكة الحلكة الزنازن مدخل جديد وصية للشوارع والمدارس وانفتاح ابواب السجون فتح مبين فى حين كانت اللحظة تحمل عمق فراغ سحيق ، عمرا مديدا من المرارة والحنين الى ولادتكم ، وصول هذه الذبذبة الخانقة الحس الى لحظة تنصهر فيها بحبات العرق بالنهارات الشاحبة والاخرى المحرقة لتشتعل من جديد لعنة السياط فى جسد المدينة التى تذرع الشارع طولا وعرضا ، وقرابة التاسعة تاخذ فى استراق النظر الى الساعات ثم تبدا بالقفز والعدو ما تلبث ان تنحنى ساجدة راكعة عابدة جامدة . فى حين كان الشارع قد اقفر الا من الهكسوس الذين اخضعوا الشارع لصمت جنائزى . آه يمكن للآلهة ان تنام قريرة العين او تفرح وتمرح كما يمكنها ان ترتع وتكرع مع هذا الصمت . لاشك انها الآن تستعذب هذا الصمت الجليل بعد أن آوى الخلق الى فرشهم بوداعة ودون عداوة داعين العلى القدير حاملين أكف الضراعة ...

وعبثا رايت التضرع لهذا النادل كى يسعفنى بكاس اخرى فسيف الهكسوس مسلط على رقبته ولسانه الجم . ومع هذه الضجة والخلط انعجابى كنت استفز التمل واستحثه ان يصل دون تلك الكاس . وخيل الى لحظتها : أن عوينات صغيرة كانت تطل من الكاس ، وكانت الآن تبرق وتغمر . غاب النادل بعد ان هم بطردى، وغابت اثره الجدران والساعة الحائطية، والقناني الممتلئة ، آه غابت هى ايضا ، ومددت يدى الى جيبى أريــد سيجارة ، فلم أعثر على سترتى ، ووجدتنى اعوم فى الحلكــة والكاس وحدها ظلت واضحة وقد امتلأت لتوها برسول الدوخة، وعندها انفجرت اساريرى وحمدت الله وشكرت له هذه النعمة التى أنعم بها على عبد من عباده الحامدين الساجدين القانتين .. وعادت الى اليد التى ضاعت ترفع الكاس وتحمله الى فمى ، وابتهجت اذ ان زجر الهكسوس لم يطل هذه الكاس ، وجرعت جرعة كبيرة غمغمت اثرها بالدم ، كان ما شربت دما وارتد من بين شفتى ومن عينى ومن أنفى ومن مسامى رشح الدم .. وقبل ان يربطوا أيديهم بالاعمدة ويعصبوا عيونهم ليمنعوا عنهم الضوء ، وقبل أن يصطف الهكسوس ويسددوا بنادقهم صوب رؤوسهم وقلوبهم وعيونهم قبل الموت الابادة فى الغابات أمــام الشهود فى غياب التاريخ فى حضور التاريخ فينا ، قبــل ذلــك سالوهم عن كلمتهم الاخيرة ، وكان الصمت آنذاك قد عم المكان . صمت مطلق كان الدنيا لن تتحرك بعده ، ولم يعد لدى ما اضيف فانا مرهق مدمى مدمى كخارطة هذا الوطن .

سعيد علوش

الايام التى عشناها

(اقصوصة)

يوم التوقعات

تحدثته الى العواصف قائلة :

— سأعترض طريق كل واحد منكم .

— انتحبت امواج البحر محتجة :

— الا يكفى ان اغسل السواحل ومؤخرات السفن ، حتى ما تهددنى العواصف ؟

بصقت الاسما كالماء وغمغمت :

— انى أعلن العصيان سأطفو حالا فوق الماء .

قالت العواصف :

— مكانكم وآلا نفخت فى السر .

عند هذا الكلام عبر موسى البحر ، غير عابىء بالموج ، والسمك ، والعواصف .

يـــوم المفـــاجـــاة

فجاة سمع دوى هائل ، اخرس كل الكائنات . اقشعـــر شعر النباتات البرية ، غمز البرق السلاحف ، احصى الهدهد الطير ، امطرت السماء ، سالت الدماء الطينية ، زفرت الارض

ــ كم انا حانقة ، ملاتمونننى عفونة ، اهدد بالتوقف، لم اعـــد احتمـــل ...

تدخلت الكواكـــب :

ــ المريخ : دورى فى الفلك كالجميـــع .

ــ مارس : أنا أحميك من الحـــروب .

ــ الزهرة : وانا أمتيك العواصف .

عندها عبر محمد يحمل البلاغة داخل حراء ، يتبعه بكر والعنكبـــوت .

يـــوم التحـــولات

تحولت التربة الى خز ، والخز الى شجرة خضراء ، لم ار مثلها فى حياتى ، اقتربت منى ، وكان أن تعانقنا فى حـــب لم يتعانقه اثنان ، الى أن مر بنا نهر عظيم ، واقترب محانيا الاقدام ، متحدثا بادب جـــم :

ــ اذا كنت لا ازعج وحدتكما فانى أريد الاقامة هنا ، لقد تعبت من طول المسافة والحر . الحق اننى مللت وحدتى ، وجئت فارا من المدينة ، لا اريد ان ارو ى احدا هناك ، قررت ان لا أروى أشقياء ، ياكلون من شمس الفقراء .

ــ لتقــم كما تــرى ذلك .

ــ شكرا لكما ، ان مفاجأتي لكبيرة ، اعترف انها اول مرة أرى فيها عاشقين يمثلان جنسين مختلفين ، شجرة وانسان.

ــ لقد مللنا عالم تقسيم العمل ، وتقسيــم الانــواع ، وتقسيم الارباح ، والادوار ، نحن هنا لنتناسل نوعا آخر ، لا هو بالحيوان ولا هو بالانسان ، ولا هو بالجماد .

عندها عبر عيسى ، يحمل الآلية الى ديكارت ومكيافيلي.

وعلــى الدنيــا الســلام

انتظمت الاجناس لاول مرة فى حياتها ، خرج سجناء الرأى يتجولون ليلا ، فى انتظار صبح الانواع الجديدة ، التى سينتهى اليها تلاقح الحيوانــات بالجمادات ، الانســان بالطيــور ، الحشرات بالنباتات .

عم القلق أرجاء المدينة ، تبخرت الابتسامات ، لم يفرح غير الفقراء ، كان الامر لا يعنيهم .

ــ قال احدهم : كيفما كان الحال لن نتحول الى أسوأ مما نحــن عليــه .

ــ قال آخر : نحن نوع منفرد منذ هاجرنا من مكة .

منــذ عبرنا سينــاء .

منذ الحروب الصليبية .

وتحركت الاحجار من مكانها نافضة التربة عنها ، فادرت المدينة فى اتجاه الجبال ، ترافقها قطع الاخشاب والحديد ، مخلفة وراءها أكوام الاسمنت وفجوات الانفاق .

أرعدت السماء ، خافت الفتاة الجميلة ، واستها قطـــة رماديـــة :

ــ لا تخافي ستتحولين الى فارة سوداء فى أسوأ الحالات.

اجهشت الفتاة الجميلة باكيـــة .

وانفتحـــت السمـــاء

أصابنى هم كبير وحدثت نفسى :

ألا تعتقدين يا نفسى انني واهم فيما أنا خائض فى تصوره. من يقبل منى هاته الاحلام الملونة ، فى عصر ملوث لا يحلم فيه قادة العالم الا بالمصاب ، ماذا سيقول الناس عنى يا نفسى واغلبهم يغرق فى الاحلام الترابية .

وحدثتنى نفسى :

ــ كنت أعرف انك واهم ، وان تصوراتك وقتية ، لا تلبث ان تتبخر ، ككل الاحـــلام .

عارضتهـــا بحـــدة :

ــ لست واهما ، أقسم باغلا الاشياء .

ــ تقصد أنك تقسم بغلاء المعيشـــة .

رفعت نظرى الى السماء ، فاذا هو الجنس الجديد ينزل من السماء بمظلات بيضاء ، انه الجنس المزيج من الجمادات والحيوانات والنباتات .

قيل بانه كان فى شكل الملائكة ... من شاهد الملائكـــة منكم فى حياته ... لا أحد سوى الاموات قبل مغادرتنا .

حزنت هذه المرة حزنا شديدا ، لانني لست مؤهلا لوصف ملاك صغير ، بغير اللون الابيض ، لن يصدقني أحمق ، وأنا أحدثه عن النوع الذى فى شكل الملائكة ، هذا الجنس الخلاص، هذا الجنس المزيج من الرعد والنقمة والمثال .

لابد ان أستعين بصور غريبة لا هى مائيـــة ، ولا هـــى سماوية ، لا هى ذات لون ولا هى ذات رائحـــة . هى ما هى بذاكرة الناس ، مادامت تصورات المستقبل واحدة .

ـــ وأصابتني الخيبة أنه مجتمع بلا طبقات ذاك الـــذى احلـــم بـــه ...

ونبـــح كلبـــى فاستفقـــت

نبـــح مغتاضا وخاطبنـــى

ـــ لم أكن اتصور الحياة كلبية بهذا الشكل .

قـــلـــت :

ـــ أحمد الله على كلبيتـــك

ـــ تريد أن تقول ما دمت لا أحسن الا النباح .

ـــ تأسفت كثيرا . وأنا انظر الى كلبى ، مشفقا على كل كلاب العالم من كلبيتهم ، تذكرت أيضا أن جارى استيقظ يوما ليجد نفسه كلبا ينبح ضد كل من بالعمارة والمسجد على السواء. يأكل الفضلات ويقضى الليل أمام البارات فى انتظار مسافـــر جديـــــد .

كم الحياة كلبية ياكلبى ، لماذا لا تتحول الى منجل ، الى مطرقة ، الى سيف خالد ، الى عصا موسى ، الى خاتـــــم سليمـــــان .

اللــه مــا هــذه الخــواطــر

وكان ان لم تكن التوقعــات / وكان يوم التحــولات / وانفتحت السماء / ونبح كلبى / الله ما هذه الخواطر : ائنها جزيرة اللقلاق من هذا الكون الكبير ، هذه صناعة الحديـــد تزدهر ، تغزو الاسوا ق ، تنافسوا التنافس الحر ، فى العالم الحر ، ساهموا فى صناعة الاقفال ، بمشاركتكـم فى الادارة العامة للافلاك تحافظون على اقتصاد البلاد .

مسكين الرجل الفلانى ، كان ينوى أن ينتهى به التحول الى نوع جديد ، فاذا هو مقعد بالمكتب العفيف للمقعدين .

مسكينة المرأة الفلانية ، كانت تطمع فى قطة سينمائية فاذا هى قاعة للعــرض .

الدنيــا ارزاق

وانــت ايهــا القمــر

استشعرت حيوية غير معهودة سالت ما حولى :

ــ لماذا تنظر الى أيها القمر هكذا ؟

اجــاب ساخــرا :

ــ ليكن فى علمك أننى اسكن راسك منذ أخذت تستشعر هذه الاحــلام .

أخذ راسى يثقل كتفاى شيئا فشيئا ، آلى حد تضخم فيه ، محتلا قدر من الفضاء .

ــ ونــت أيتها الشمس لماذا تغمزين هكذا ؟

احمرت الشمس خجلا وقالت :

ــ ليكن فى علمك اننى اسكن فى قلبك منذ أخذت تستشعر الدفء .

وعمرتنى حرارة لدرجة اننى احترقت فيها عن أخرى ، ثم اشتعل رمادى ، وتبخر عبر الفضاء الواسع ، وبعدها نزلت الامطار بغزارة ، وسال الماء .

سعيد علوش

احمد زيادى

عباس ينغرس فى الارض

قصة قصيرة

يدفع امامه الباب الخشبى المتفكك الاضلاع ، حتى اذا ما دلف الى الساحة ، انفلت من يده ، وارتطم بالاطار محدثا صوتا بين الصفعة والحشرجة .

اىَ تضامن هذا الذى أبدته الايام ضدك ؟ ! كل الاحداث تعاكسك ، كل الاشياء تعاديك ، كل الاخبـــار تحزنك ، كـــل المرئيات تغيظك ، وانت متفرد امام نوازلك ، عاجز فى غمرة نزعك ، وحيد بين براثن مفترسك ، اعزل فى وجه مهاجميك .

يلقاه كلبه ، يتمسح به ، يرفع يـــده ، يهـــش عليـــه ، يبتعد الكلب ، تهاجمه دفقات الخواطر :

الشجر الذاوى يغفو منتظرا اوبة النسمة المحملة بشذى البراعم ، وعبق الزهر ، وشدو الطيور المتعبة الاجنحة ، لتحكى له عن رحلة الجدب ، وما قاسته من آلام الغربة والضياع ، فى زحمة الهجرة ، وما لاقته من هموم ومخاوف واحزان ، وهى

تهجو اعشاشها ، فيحتلها البوم والغربان . فتنتشى الغصون وتتمطى مرتوية الجذور ، مخضرة الاوراق .

والماء اندفاق المعكر ، كل ذرة فيه تحلم باللقاء الذى لافراق بعده ، بالصفاء المطلق ، بالصيرورة والذوبان فى المصب المبدع.

والنهر يضطرب بين الضفتين ، والسنونو الناغب من صفحته المتكسرة ، يحمل فى منقاره الفحيل ، عشبا سندسيا وفى عينيه ظلالا ونضارة وصورا لاعشاش ناعمة دافئة .

وانت ؟ ! ؟ خشبة ألقيت فى عرض التيار ، فطفت تشرئب الى المصب الامين ، الى الاشجار النضرة ، الى الطيور الطليقة ، فلما خالجها الانشراح ، وغمر عينيها وجد الربيع الطلق ، احتضنتها صخور ناتئة غنبتت فى وجه التيار ، تصفعها امواجه ، وتدعها مجروفاته ، ولكن انى لها ان تملك امر نفسها، وسط هذا المد العاتى . ولولا ذكرياتها عن ايام كانت فيها غصنا مياسا ، تغازله الطيور والفراشات فينحفر حياء ، وتداعبه يد الربيع فتكسون فتنة ، وتلامسه النسمة فيتيه حبا . ولولا املها فى ان تعود يوما شجرة خضراء ، بل غابة غناء ، لفقدت كل وشيجة تربطها بالحياة ، واستسلمت للموت المترصد فى كل مكان .

يجلس على حشية رثة ، يطلق تنهيدة ، ينش دجاجة كانت تلتقط ، بحذر ، فتاتا منتشرا فوق الحصير ، يدعو ابنته من اقصى الزريبة :

ــ ديرى المـا يطيب ، وارى الصينية .

يتناول حزيمة نعناع من فوق المائدة ، يفك رباطها الدومى ينثرها فى حجره ، ثم يتناول غصيناتها غصينا غصينا ، فينظفه ،

ثم يقطعه لجزاء صغيرة باظافره الغليظة ، فيعبق الجو برائحة القمــاع .

حانت منه التفاتة ناحية الوسادة ، تناول المذياع ادار زره :

« .. وقد خلفت هذه الحادثة الجوية الاولى من نوعها فى فرنســا مئات من الضحايا . ونشرت الصحافة الامريكية اليوم فى شيكاغو ، صورة افراد العصابة التى ثارت الفزع والذعر لدى سكان هذه المدينة ، ومعلوم ان العصابة المذكورة كــانت تختطف الفتيات السمراوات لتقتلهن . وعلم من اليابان ان امرأة ولدت ستة اطفال مات اثنان منهم بعد الوضع مباشرة ، ومات الباقون بعد ذلك بساعات قلائل . وانتحر صبيحة اليوم الجندى النازى « شنايدرطاغ » عن سن تناهز الثمانين ، لاسباب مجهولة ، وقد عهدت ادارة السجن الى الخبير الالمانى «دايفرنون» ببحث القضية . القى القبض فى هولاندا ، هذا الزوال ، على شخص كان يحاول تهريب كمية من المخدرات .. وعلم من بلجيكا ... وانيع فى برشلونة ... وجاءنا من بريطانيا ...

الدم يغلى ، الراس تاز ، الفالج يغربل باليدين الرجلين ، لنغمام والضباب يحجمان الرؤية ، النسفتان المنشفتان تهتزان فى حركة متشنجة ، كحركة أرض يهزها مخاض زلزال عنيف :

« ومراتى التى ماتت بالسخانة هادى ربع شهر ؟! وبقرتى اللى طاحت فى البير هادى خمس شهر ؟ ! وولد بنتى اللى غرق فى الواد هادى شهرين ؟ ! وولد خويا اللى تشد فى الحبس على الظلم هادى سوقين ؟ ! ولخصومة على الحد اللى بينى وبين الشيخ هادى عامين ؟ ! ... »

التقط المنياع بعصبية ، وطوح به الى الساحة ، فارتطم بالارض الصلبة ، وهرعت اليه الدجاجة تفتش عن قوتها بين اشلائه المتناثرة .

الدار البيضاء : أحمد زيادى

خليـل الـدمـون

زوج بلازوجة

(اقصوصـــة)

اضحك مع ــ على نفسى ، مع ــ على الاخرين مثلى ، مع ــ على الذين يؤمنون برجولتهم اشد الايمان .

يسيح العرق فوق وجهى وانا انهالــك علـــى الكنبـــة المنصوبة فى الركن السفل من الغرفة. ارخيت نفسى الى الوراء لانفض عنى هذا التعب الغريب الذى لم اشعر به منذ مـــدة طويلة : تعب المطبخ ، والاوانى ، والفراش ، والتكنيـــس ، واخراج سطل القاذورات فى الوقت المضبوط .. غريب عالـــم البيت بتنظيفاته ، وتقنياته ، ونكهته ، وطقوسه ، وتقنيناته. تقول زوجتي دائما : شغل البيت لا ينتهى ابدا ، لذلك فـــرق الله ما بين الزوفرى والمتزوج فرق ما بين السماء والارض ..

احساس واحد لا يكاد يفارقنى وانا وحدى فى البيـــت : احساس كبير بالحريـــة .

اضع اللبن يطبخ فوق النار واروح الى غرفة النوم لادير ازرار المذياع باحثا عن موسيقى خفيفة وراقصة تعيد للبيت نكهة الظرف والشباب ، وتخلع عنه ثوب الروتين . ثم بعد ذلك أتوجه الى الغرفة الاخرى ، الغرفة التى تسميها زوجتى غرفة الضيوف والتى تحافظ على نظافتها ونظامها أكثر مما تحافظ على اى شىء آخر فى هذا الوجود . يجب الا تدخل وانت لابس حذاءك ! يجب الا تضع بقايا سيجارتك فى المرمضة النحاسية ! يجب ، ويجب ، ويجب ... الى ما لا نهاية .

لكن اليوم شىء آخر . جلست فى صدر غرفة الضيوف، وتخيلته نفسى فاسيا كبيرا جالسا بين أتباعى وتابعاتى : أمرى مسموع ولا راد لطلباتى . كل ما اتصوره مقبول . كل مما اقوله مقبول . كل ما أفعله مقبول . مسحت هذه الصورة فجأة وبسرعة من مخيلتى ثم قلت : ــ من الاحسن أن أكون اميرا من الكويت .

وبعد ما تهللت لهذه الفكرة الاخيرة قلت بصوت مسموع: ــ اسمعوا يا جماعة . لى وصية أود أن تنفذوها بعد مماتى : عندما اموت أود أن تحم لنعشى عشرون فتاة عارية ، ويمررن بى من الشوارع الرئيسية فى المدينة وهن يغنين ، جميل واسمر، جميل واسمر ...

اجاب الاتباع فى تأسف مصطنع : أطال الله عمرك ايها الامير ، وأدامك نورا لنا نستضىء بك ونهتدي بك .

رن الجرس بقوة أفزعني وجعلنى انهض بسرعة واشم رائحة حريق كريهة آتية من المطبخ . ترددت بين الذهاب الى المطبخ أو الى الباب . فضلت الباب : لعل الجارة تريد كأسا من الزيت أو قطعة من السكر . فتحت الباب بلهفة كبيرة ، فاذا بفاتورة الكهرباء أمامى تقدم لى باحترام جاف

ومقتضب أبيتها فى ذهول ، وأنــا ألعن الــظــروف الذاتيــة والموضوعية التى صنعت هذه اللحظة النتنة . ثم أغلقت الباب فى عصبية ظاهرة لاشك أنها جعلت الرجل المسكين يتساءل عن سر هذا السلوك الشائن .

رجعت الى المطبخ باحثا عن اللبن فلم اعثر الا على بقايا سوداء فى قعر الانية . أطفأت نارى ووضعت الانية مع الاوانى الاخرى الملوثة ، مما يضفى على المطبخ منظرا آخر خاصــة فى هذه الظروف الاستثنائيــة .

خرجت من المطبخ جائعا متأسيا ، من أولئك الذين نزلت بهم المقادير الى أرض السابعة تصورت نفسى حينا بروليتاريا ثائرا وأنا اجر خطاى فى الممر . خاطبت الجماهير الشعبيــة الكادحة الفقيرة بصوت مرتفع :

« ـــ أيتها الجماهير الشعبية الزاحفة !

اخاطبكم اليوم لاحيى فيكم روح النضال والصمود والصبر، ونحن نواجه ابشع واشنع مظاهر التعفن والتفقير ، والحرمان، والاستغلال . أخاطبكم فى هذه الظروف الحالكة لنظل جميعــا فى السراء والضراء ، على عهد واحــد ، ونسير علــى درب النضال بما يتطلبه هذا النضال من تضحيات ومواقف .

« ان الجماهير الشعبية اليوم محتاجة أكثر من أى وقت مضى الى مزيد من الوحدة ، ومزيد من الوعى ، ومزيد مــن الصمود ، لانها أصبحت اليوم وأكثر من أى وقت مضى هدفا للامبريالية العالمية وعملائها » .

ثم ضرب بقبضة يده على الحائط : « ونحن كقوة خلاقة، لن نسمح ابدا بعبث المابذ ين وتكالب المتكالبين ، سنعرف كيف نضرب ، ومتى نضرب ، وأين نضرب » .

تصفيقـــات . تصفيقات . تصفيقات جادة وطويلة .

أراد أن يتابع خطابه فى نشوة نادرة لولا أنه سمع مرة أخرى دقا مكثفا على الباب . ود لو أنه يحيى الجماهير بكلتا يديه ، ولكن الطارق يزعجه بالحاح . توجه نحو البـــاب ، وفتحها فاذا بامرأة واقفة تبتسم عرف أنها جارته . ابتســـم لها بدوره وقال : ـــ تفضلى ، تفضلى . أهلا وسهلا . البيت بيتــك .

ـــ لا ، لا اسمح لى . جئت فقط أطلب منك شيئا مـــن السكر لان زوجى ذهب الى العمل فى الصباح الباكر ونسى أن يترك لى كالمعتاد ثمن السكر .

ـــ سأعطيك السكر ، ولكن تفضلى . عيب أن تظلـــى واقفة بالباب تفضلى . تفضلى .

دخلت وجلست على طرف الكنبة وكأنها مرغم عليها ـــ تشربين شايا أم قهوة ؟

ـــ بالله عليكم لا تتعبوا أنفسكم . جئت على استعجال . الاولاد سيعودون بين الحين والاخر .

ـــ حرام عليك يا للا نزهة . تشرفيننـــى بزيارتـــك ولا تشربين ولو كأسا من الشاى من صنع يدى ؟ ماذا ستحكين عنى مع الناس ؟

ـــ طيب سأشرب شايا بسرعة لكن ما أخبار السيـــدة فاطمة ؟

أجابها من داخل المطبخ : ـــ بخير . بخير والحمد لله . وصلتنى رسالة منها البارحـــة ، ستعود الينا خلال هـــــذا

الاسبوع . » ثم بعد مدة خرج من المطبخ وفى يديه صينية فوقها ابريق الشاى مع كؤوس يظهر عليها انها لم تنظف جيدا.

ــ تفضلى ، تفضلى ! البيت بيتك ، كيف حال السى موحا وحال الاولاد ؟

ــ آه على الاولاد فى هذا الزمان . الاولاد مصيبة . فريدة وادريس طردا من المدرسة ، بينما سعيد ، يبحث عن عمل ، اين العمل ؟ (ثم فى حسرة) العين بصيرة واليد قصيرة ...

ــ لا تخافى ولا تحزنى . ربنا كريم . لى فكرة . مدير البنك المركزى صديقى منذ مدة. سأبحث لك عنده على معل، لا تخافى . اعتمدى على ، اعتبرى هذا المشكل محلولا .

ــ جازاك الله خيرا يا سيدى

ــ ثم ان رب معمل الصابون تربطنى به علاقات متينة، ولا يرد طلبا فى وجهى . لم لم تحدثينى فى هذا الامر من قبل ؟ حرام عليك . لديك علينا حقوق الجار، والله تعالى أول ما اوصى به المؤمن هو الجار . حقوق الجار على الجار كبيرة يا للا نزهة.

أطرقت خجلا ثم وضعت الكأس على الصينية ارادت أن تستأذن فى الذهاب لولا أنها سمعت الجرس يدق بقوة . التفتا الى الباب ثم الى بعضهما فى صمت وذهول . وقفا وقالا بصوت واحد :

ــ ما العمل ؟

بعد تردد واضطراب بالغين اقترحت عليها ان تدخل الى الغرفة الاخرى حتى أرى من الطارق . دخلت الغرفة وذهبت الى الباب لافتحه . لم اجد احدا . بحثت فى الممر ولكننى لم اعثر على احد .

رجعت كسيفا وأنا أصطنع ابتسامة مريضة خجولة ، وناديت على المرأة : ــ اخرجي يا للا نزهة . لا يوجد احد .

خرجت المرأة بسرعة وهرولت نحو الباب ثم اختفت بسرعة مذهلة .

ــ تعالى، خذى السكر . لقد نسيت السكر ...

بقيت وحدى جامداً فى مكانى . فكرت كثيرا ثم اكدت لنفسى فى عتاب وتوبيخ أننى أصبحت دون قيمتى وأننى لابد من ان أراجع كل شيء . آنذاك فكرت فى العرض الذى سالقيه فى الاسبوع القادم بمناسبة اليوم العالمى للمرأة . ثم اعدت الى ذهنى أننى متزوج ومقبل على انجاب الاطفال الذين هم فى حاجة الى مواقف صارمة بعيدة على كل تذبذب .

آنذاك مرة أخرى ضحكت مع ــ على نفسى ، مع ــ على الاخرين مثلى ، مع ــ على الذين يؤمنون برجولتهم اشد الايمان ...

خليل الدمون

احمـد عبـد النبـاوى

الزقاق الضيق

(اقصـوصـة)

تطلع اليها بعينين متقدتين وهتف بصوت مخمور :

ــ « الله يجيب !!.. قلت لك الله يساهل !! .. » .
نظرت اليه بغضب وصرخت بحدة : ــ « خسرت ما جمعته فى « المكانتينة ✱ » ! ، وماذا تطعم هذه القبيلة المجائعة ؟ !، ام انساك الخمر فى الاولاد ؟ !

ــ « قلت لك الله يجيب .. كلهم قالوا لى اليـوم اللـه يجيب ! .. اله يساهل !! .. مخزنساش عليك !!

ــ « كذاب ! وهل انعدم المحسنون ؟ ! لا توهمنى ببهتانك .. قل اعطيتهم لصاحب (الكانتينة) .. شربتهم خمرا !! ..

ــ « لا ، لم ينعدم المحسنون ! ولكن ظهر نوع جديد من المشحاذين .. الصدقة اصبحت تعطى للمتسولين الذين يملكون دبلومـا يؤهلهم لذلك !!

— دبلـــوم !!؟ .

— نعم الـمـــلا .. أحدهم جاء بشهادة الفقـــر ، وآخـــر بشهادة المستشفى .. كان مريضاً بالسل .. وآخر شهـــادة اسلامه .. كان يهوديا واسلم .. وأنـــا ماذا لى ؟ !، حتى اصحاب المعاهدت لم يستدروا عطفا ،، كل شىء يسير بالاشهار اليوم .. الخداع وسيلة لابد منها للنجاح .. هل فهمت ما هو الدبلوم الان ؟ .. قال لى أحدهم وأنا اتوسل اليه .. ايـــن الشهادة ؟ ! !

* * * *

جمعت «درابلى *» وتوجهت الى احدهم ، سالته صدقة.. قال لى : « عضلاتك كالبغل ، أنت ما تزال أقوى منى .. ابحث لنفسك عن عمل !! »، قلت له : « انا فى خدمتك .. ابحث لى عن عمل يا سيدى .. لم اجد مكانا خاليا .. » ، حدق فى بغضب وهتف بمرارة وهو يبتعد : « وهل سمعـــت اننى املك الحافلات ، أم الضيعـــات !! ، انـــا لا أفوقـــك الا بالصبر !! .. »

الصبـــر .. الصبـــر .. اعيـــانـــى الصبـــر ..

بقيت اتسكع حتى المغيب ، ثم عدت وما فى جيبى الا المقطع العشر التى كنت أضع على « الدربالة » كاشهار .. اخذتهـــا البقال .. افهمت ! للبقال ، وليس فى « الكانتينة كما تتوهمين !! .. البقال اعطانى قنينة كحول ، شربتها متستراً بالظلام .. للاسف لم تسكرنى ، تخصنى اخرى لكـــى انسى الهمـــوم .. انسى وجودى .. انسى الضياع !!.

— بل لكى تحطم امعـــاءك ! .

ــ لا يهم !!! .

ــ وماذا يهم ؟ ! . »

نظر اليها بعمق .. الى الخرقة البالية التى لا تكاد تستر شيئا من جسدها المغبر .. اين جمالك يا حليمة ؟ ! اتلفته الاوساخ !! ، لو غسلت هاته القشور الصلبة التى تكومت على جسدك ، ولبست لباسا نظيفا لفضلك عنترة على عبلة !! .. كم امقتك ايها الفقر .. فتح فاه ليقول « المهم » ، حيث ترامت اليه من « البراكة » الاخرى اصوات فئران جائعة عارية .. سبعة اطفال ، اكبرهم مقعد فى المعاشرة ،، ثم اطبق فمه وابتسم ابتسامة كبيرة ظهرت بوضوح فى عينيه المحمرتين ..

عادت حليمة بعد ان فضت نزاع الاطفال المتخاصمين وهى تحمل اثنين منهم ،، احدهما متعلق بثديها الجاف يمتص الاوساخ العالقة به دون ان يستدر قطرة واحدة .. وهل تحلب بقرة جوعانة ؟ !!

ــ « ما زلت انتظر « المهم » ،

ــ لا .. لا داعى له الآن .. خطرت لى فكرة اخرى ، ساحمل معى للميدان غدا سبع شهادات وليس واحدة فقط .

ــ سبع !! »

* * * *

واشرقت الشمس .. وماتت بعد ان اتمت نصف دورة .. وعاد الرجل يقود « الدبلومات » السبعة .. سبعة اطفال هم كل ننبه فى الحياة ، كلهم قادهم للشارع والسوق ليتسول بهم .. قال فى شارع الحرية : « اطعموا هؤلاء اليتامى .. ارحموهم ..

ساعدوهم فى نسيان أمهم !! .. » وفى درب التندم بكى بدموع حامية وقال : « صدقة لهؤلاء اليتامى ، مات أبوهم وأمهم وحملتهم لعلمى بأن المحسنين سيساعدونى فى احيائهم ! ». وما جمع الا قروشا قليلة .. اكثر من ثمن قنينة الكحول بقليل !! وجاء الجواب واحد ، لا يكاد يتغير فى « شارع الحرية » وفى « درب التندم » .. وفى « ساحة منظمة رعـــاية حقوق الانســـان » : « خذهم للخيرية !! » .. ليتهم .. ليتهم يفهمون بأن « الخيرية » أغلقت أبوابها فى وجههم عدة مرات . ليتهم يدركون أن مفتاح باب الملجأ الخيرى هو وساطة « أحد الكبار » !.. وتهـــامس الكثيرون : « ما هى الا لعبة سخيفة ، هؤلاء الشياطين تكترون الاطفال للتسول بهم ، وهم يملكون الاموال الطائلة .. » . قال أحدهم وهو ينظر اليه شزرا : « اراهن انه يملك راسمال يكفى لفتح متجر بأكبر شوارع المدينة !! » .. وتأسفت سيدة عليه وهى تمنحه بضعة قروش : « انك تجنى على هؤلاء الأطفال ، اتركهم يذهبون الى المدرسة ! » .. تجهم عباس ، لقد ادمت المرأة جرحه .. ليتها تدرك هى الاخرى ، انه لا يملك ثمن اطعامهم .. ليتها تدرك انه ككل أب يريد أن يرى من بين أبنائه المدركى والشرطى والقائد والحاكم والطبيب .. ليتها تعلم ثمن القلم دون متناوله ...

ولم يشرب المكحول هذه المرة .. لم يفكر فى الحدنة ولا فى المبقال .. وإنما كان يبحث عن الفكرة الضائعة وعن الراسمال المزعوم الذى يمكنه من كسب لقمة الخبز ...

* * * *

ـــ « ما العمل ؟ ! » قالتها فى تسليم وقد خبت المنظـــرة المقاسية من عينيها الذابلتين ..

ـــ « غدا .. تذهبين أنت .. تتسولين .. ». خرجت الكلمات من فيه بطيئة متقطعة كمخاض عسير ، وأحنى رأسه وهو يضيف . « هو المحل الوحيد ، تشحذين أو نهلك جوعا .. ضاقت الدنيا .. فكرت فى الانتحار ،، ولكن .. الاطفال !..!!».

ولم تفه حليمة بكلمة .. صدمتها الفكرة « المهينة » زوجها شحاذ محترف لم يجمع عشاء أطفاله .. هى ... هى !! . لاسامحك الله أيها المفتر !!

* * * *

اشرقت عليها شمس الغد فى « شارع الفضيلة » وقد تعلق طفلاها الصغيران بثدييها المجناوين فى محاولات لاستدار اللبن كضمآن غره السراب ...

ومر الناس دون ان يهتموا بالمرأة التى تدعى انها أرملة تربى سبعة أيتام ،، وكيف يهتمون بمشهد روتيني رتيب ، يتكرر فى كل زقاق وفى كل شارع ... ما أكثر الارامل والايتام والعجزة الشحاذين ..

قال لها أحدهم : عندى (براكة) .. واعيش وحيدا .. اعمل فى مواسم الحصاد ، ثم العطلة الدائمة .. بوسعى ان أطعمك لبضع ليال لو كنت وحدك !!

ـــ « لكن يا سيدى ... الاطفال ..

ـــ ليس عندى ملجأ للايتام !! ». كفرى عن ولادتك ياحليمة .. ما اتعسك !! . وقال لها اخر : « زوجتى تبحث عن خادمة .. تعالى معى لتتسلمى عملك من اليوم ..

ـ سيدى .. اطفالى .. يجب ان آخذ طفلاى الى الكوخ .. عد الى غدا .. اينما تشا تجدنى !! .

ـ قلت لك الآن ، اتركى الاطفال هنا وتعالى ،، المنزل قريب وستعودين بعد حين .. العمل ليس عسيرا ، ستنتهين منه فى دقــائــق !! »

احنت رأسها فى حياء وقد تصببت قطرات العرق مــن جبينها ، وغمغمت : « حرام !! الله يسامحك !! ».

وعادت فى المساء وما حملت اكثر مما حمل زوجها وشهاداته السبع بالامس .. وحكت لبعلها عن العروض السخيفة التى تلقت .. ولم تذهب فى الصباح ، ذهب هو ...

* * * *

وفى شارع ما .. لا اسم له .. وقف الرجل يتسول ، واشتدت الحرارة ظهرا . ولم ينفحوه قرشا .. حينذاك انطلق بحزم صوب رجل نزل من سيارة « كريزلير ». كان يتقدم بخطى وئيدة الى حانة فاخرة انبعثت منها اغنية تقول : « عش أنت .. انى مت بعدك .. » اوقفه وخنقه ، وقال بصوت صارم لا يقبل نقاشا : « عش انت ، عيشوا انتم ، وانا .. ونحن ؟! .. نضيع ؟ ! .. اعطني بما اشترى طعاما .. نصيبى .. ثمن شقائى وحرمــانى .. »

ادخل الرجل يده فى جيبه ، اخرج ورقة نقدية اعطــاهــا المتسكع الناقم ، أشرقت عيناه ببريــق المنتصـــر .. وفرملت « الفاركونيت » على رجليه ، وسقطتصفعة الرجل ذى الكرش المنتفخة على سحنة الشحاذ الضائع .. وقالوا : لص محتال يسطو على أموال « الاسياد الكرام »، وزأرت السيارة مخلفة

خلفها عجاجة من دخان ، وانعطفت مع استدارة زقاق المستقبل .. كان ضيقا .. ضيقا جدا ، لم يسمح لها بالمرور .. فعادت الى شارع طارق بن زياد ووقفت .. عند ذلك قفز الشحاذ هاربا وولى وجهه زقاق المستقبل وضجة المطاردة تنبعث من خلفه صاخبة مدوية ...

خريبكة : امحمد عبد النباوي

هوامش :

الكانتينة : الحانة

الترابل : الاسمال البالية .

محمـــد ابراهيـــم بوعلو

سوق الكرامة

(أقصوصـة)

دفعتهم ظروف خاصة الى ان يشغلوا عندهم خادمة تسهر على مساعدتهم فى تربية ابنائهم وخاصة الطفلة الصغيرة (كوثر) التى لا تتجاوز السنتيـــن •

مرت عشرة اشهر على الخادمة (كنزة) وهى تشتغل فى البيت من غير اى تقصير فى القيام بواجباتها ، بل كانت محتفظة على أسلوب فى العمل ينبسط منه الجميع •

لا يعرفون اشياء كثيرة عن (كنزة) ولكنهم يدركون أنها قبل ان تلتحق بالعمل عندهم انها مرت من ظروف قـــاسية ، كطلاقها من زوجها الشاب الذى يأتمر باوامر والدته ، وظروف عائلتها القاسية ، خاصة بعد العمى الذى أصاب اباها فعاقه عن العمل •• ثم كثرة الاطفال الذين لا يساعد الاسرة منهم الا بنت تصغرها بسنتين •• وتحدثهم احيانا عن بعض العائلات الوجيهة التى كانت تشتغل عندهم ، وطريقة معاملتهم القاسية التى كانت تضطرها الى مغادرتهم ، بل انها تصرح لهم بأنهـا

تعتبر نفسها محظوظة اذ عثرت على اسرة مثلهم تمتاز بحسن المعاملة والمحافظة على كرامة الاخرين .. ولولا قلة الاجرة الاسبوعية فانها تعتبر أن وضعيتها معهم حسنة جدا ..

الى هنا والامور عادية .. خاصة وأنهم من حين لاخر يعوضون عن الاجرة القليلـة ببعض الملابس يمنحونهـا لهـا ولاسرتها ، غير أنها اخذت فى أيام الاخيرة ، تسرع فى الخروج من البيت حتى ولو لم تتمم الاعمال التى عودتهم على القيام بها..

تكررت مثل هذه الامور غير ما مرة ، بل انها اخذت تتاخر فى الصباح أيضا عن ميعادها فاضطربت من جراء ذلك مواعيد خروج الطفلين الى المدرسة .. ونبهتها الزوجة غير مامرة الى ذلك ، ولكنها كانت تعتذر باعذار متعددة تتلخص فى ان ظروفهم جد قاسية ، وان والدتها مريضة جدا ، وأنهـا تحتـاج الـى مساعدتها ومساعدة اخوتها ..

وتحدثت الزوجة الى زوجها فى شان (كنزة) التى اصبحت تخل بالتزاماتها السابقة لكثرة مشاكلها العائلية ، بـل انهـا اقترحت عليه ان يبحثوا عن خادمة اخرى ليست لها مثل هذه المشاكل .. ووعد الزوج بالنظر فى الامر ..

من عادات الزوج ان لا يتحدث الى (كنزة) بل انه اذا ما احب شيئا طلبه من زوجته ، وهذه بدورها تنقله الى الخادمة حتى تبقى بينهما علاقة احترام قد تفيد فى مناسبة من المناسبات، ولعل الحالة التى وصلت اليها وضعية (كنزة) تقتضى ان يتدخل وهو مزود بهذه الهالة من الاحترام ..

وتريث الزوج بعض الوقت فى مكاشفة (كنزة) فى الحكم على تصرفاتها الاخيرة ريثما تنفرج مشاكلها العائلية فتعود الى سابق عهدها ، وبذلك تريحه من هذه المواجهة التى يخشى ان

تطير بذلك البرقع من الاحترام ..

ولكن الزوجة كانت تلاحقه باستمرار ، بل اصبحت تتهمه بطيبويته الزائدة ازاء معاملة هذه الخادمة المقصرة . ولكـــن الزوج كانت ترجع الزوجة الى رشدها من غير ان ينسى ان يذكرها بان الخادمة التى تتقن عملها ، وباجر قليل مثل (كنزة) لا يمكن الحصول عليها كل يوم .. وتقتنع الزوجة بوجهة نظره خاصة بعد ان ذكرها بتلك الايام الطويلة التى قضوهـــا وهـــم يبحثون عن اى خادمة كيفما كانت ...

غير ان الحال لم يستمر على هذا المنوال طويلا اذ سرعان ما خرجت الزوجة عن اطوارها ، وشددت الخناق على زوجها فى حسم امر (كنزة).

ولم يجد الزوج بدا من التضحية بتلك العلاقة التى كان يود طيلة هذه الايام ان يحتفظ بها ، بل انه اعتقد ان الوقت قد حان لاستغلال ذلك ((الاحترام)) لارجاع الامور الى نصابها والا فانه لن يعرف بعد ذلك كيف يخمد ثورة زوجته العارمة ..

وتصيد فرصة للحديث من (كنزة) وبعد ان سالها عن ابويها واسرتها محاولا ان يكن دبلوماسيـــا للاحتفـــاظ بذلـــك ((الاحترام)) انتقل ينبهها الى اخلالها بمواعيدها وبالتزاماتها باحثا عن كل لفظ مهذب مناسب حتى لا يحرج كرامتها ، وفى نفس الوقت ، ينتزع منها وعدا بان تعود الى سالف عهدها منذ عشرة اشهر مضت ..

وبعد هذه المكاشفة بدا ان (كنزة) رجعت الى عملهـــا السابق ، وانتظمت مواعيد عملها بصورة عادية ، الشىء الذى دفع الزوجة الى ان تصارح زوجها بان تدخله كان له مفعوله

فى ذلك ولا شك ، واضافت بان الخادمة تحتاج عادة ، من وقت لاخر ، آلى رب البيت ليذكرها بواجباتها ..

بيد ان (كنزة) لم تستمر طويلا فى العمل بصورة منتظمة اذ سرعان ما عادت الى سالف تأخرها ، واخلالها بالتزاماتها، وبدأ للزوجة ان الامر ، فى هذه المرة ، يحتاج الى تدخل سريع وفعال . ولكن الزوج على طريقته الخاصة تريث بعض الوقت، بل انه اخذ يفكر فى أمر (كنزة) بصورة أعمق . اذ بدا له انها فى استطاعتها ان تقوم بالتزاماتها اذا رادت ذلك ، فالمشـــاكل التى كانت تدعيها لم تعقها فى الايام آلتى تلت حديثه معها ، من اداء عملها بصورة عادية ومرضية .. اذن هناك اشيـــاء اخرى غير ما تتعذر به دائما ..

وعندما الحت الزوجة على اتخاذ الموقف المناسب فى هذه المرة ، نبهها زوجها الى ان الامر يقتضى بعض المرونة اذا هما حقا ارادا ان يحتفظا بكنزة ، والا فان اى تسرع فى مواجهتها، مرة أخرى ، يعنى القطيعة التامة معها . فى هذه الحالة يلزم ايضا التريث ريثما يعثران على خادمة تعوضها .. ولكن الزوجة لم تقتنع هذه المرة بآراء زوجها ، ونسبتها الى طيبوبته الفائقة .. واذعن الزوج ، هذه المرة ، الى رأى زوجته حتى يستريح من وجع الدماغ الذى يصيبه كل مرة تتخلف الخادمة عن عملها لذا استدعاها الى مكتبه ، ودخل معها توا فى الموضوع ، وناشدها بان تصارحه ، فما كان منها الا ان أطلعته على الاجرة الضئيلة التى تعمل بها الشىء الذى يدفعها الى العمل الاضافى خارج أوقات عملها ..

حاول الزوج ان يقنعها بان الاجرة التى يدفعونها لها اذا لم تكن كثيرة فانها مع ذلك موفورة الكرامة ، وانهم يعتبرونها كواحد منهم ، ولا يبخلون عليها وعلى اسرتها بشىء اذا ما راوا

ذاك ضروريا ، ولكنها اجابته بحدة بان الكرامة التى يتحدث عنها لا تساوى شيئا فى السوق الذى ارتفعت اثمانه هذه الايام بشكل غريب ..

وتشعب الحديث بينهما الى ان ختمته بقولها

ـ « كم الساعة الآن ..؟ »

ـ « الثالثة .. »

ـ « انتظرنى هنا ، وساعود بعد ساعة .. »

وغادرت (كنزة) البيت ، فدخلت الزوجة مسرعة الى المكتب تسال زوجها عن النتيجة التى وصلا اليها ، فما كان من زوجها الا ان اجابها بانهما لم يصلا الى نتيجة ، وان الامر كله مرتبط بغلاء المعيشة ، وقلة الاجرة التى ندفعها لها ، ثم انها ذهبت لتعود بعد ساعة ..

ـ الى ايـن ؟

ـ لست ادرى .. وفى امكانك ان تنتظرى قدومها ..

ـ لا .. لا ساتركك!ا وحدكما ..

وعادت (كنزة) بعد ساعة تقريبا ، ووجدت الزوج مايزال بمكتبه يشتغل واقتربت منه ، ووضعت امامه كمشة من الاوراق النقدية قائلة : « هذه قيمة عمل ساعة فقط .. » وانصرفت من امامه ..

والتحقت الزوجة بزوجها فوجدته يعد الاوراق المالية ، وعندما انتهى سالته :

ـ من اين لك بهذه النقود ؟

ــ انها لكزة ، وهى كما ترين اكثر مما نعطيه لهـا فـى الاسبوع .. انها « عمل » ساعة فقط ..

ــ عمل .. ؟ ! ليس .. ؟ !

وقام الزوج مبتعداً عنها وهو يغمغم بكـلام لم تتبينـه : « فى سوق لا تساوى الكرامة فيه شيئا .. »